بلاغة التورية وأثرها
في
تأويل الآيات القرآنية

دكتور / أحمد عبد المجيد محمد خليفة
أستاذ الأدب والبلاغة والنقد المشارك بالكلية الجامعية
بمكة المكرمة ــ جامعة أم القرى

بسم الله الرحمن الرحيم

بلاغة التورية وأثرها
في تأويل الآيات القرآنية

ملخص البحث

تعد التورية من أروع الفنون البلاغية ، وأسماها على الإطلاق ،فبها نستطيع أن نفهمَ بعض آيات القرآن الكريم المتشابهة، وكلام سيد المرسلين ، وكلام الفصحاء فهمًا صحيحًا ؛ *بل تُعد من الحلول الشرعية لتَجنُّب حالات الحرج التي قد يقع الإنسان فيها،* عندما *يُسأل عن أمرٍ لا يريد الإفصاح عنه ، ولا يريد أن يقع في دائرة الكذب* الذي يعد من أكبر الكبائر ، فضلا عن أنها خير وسيلة للدعابة والطرافة ، والمزاح بالحق . وأفضل أداة للتخلص مما نخشى عواقبه.

لذا جاء هذا البحث بمقدمته ،ومحاوره الثلاثة ، وخاتمته يكشف عن نقاب التورية في القرآن الكريم ، ويجيب عن الأسئلة التالية التي طرحها البحث: ما مفهوم التورية لغةً واصطلاحًا ؟ وما أهميتها ، وسر جمالها ؟ وما مفهوم المتشابه في كتاب الله ؟ وما الآيات التي وردت فيها التورية ؟ وكيف نوجهها توجيهًا يتفق مع منهج أهل السنة والجماعة ؟ و ماذا يضيرنا لو لم نفسر بعض الآيات المتشابهات بها ؟ مستفيدين في كل ذلك من بعض ما كتبه المفسرون قديمًا وحديثًا في تفسير الآيات التي وردت فيها التورية ، وتوجيهاتهم البلاغية لها .

مقدمة البحث

تعد التورية من أروع الفنون البلاغية ، وأسماها على الإطلاق ، " وأعلاها رتبة ، وسحرها ينفث في القلوب أبواب عطف ومحبة"(١) ، وهي عند علماء البلاغة " بمنزلة الإنسان من العين ، وسموها في البلاغة سمو الذهب على العين " (٢).وهي خير وسيلة للدعابة والطرافة ، والمزاح بالحق ، وأفضل أداة للتخلص مما نخشى عواقبه ؛ بل تُعد من الحلول الشرعية لتَجَنُّب حالات الحرج التي قد يقع الإنسان فيها، عندما يُسأل عن أمرٍ لا يريد الإفصاح عنه ، ولا يريد أن يقع في دائرة الكذب الذي يعد من أكبر الكبائر ؛ وأهم من هذا كله نستطيع من خلالها أن نفهمَ بعض آيات القرآن الكريم المتشابهة، وكلام سيد المرسلين ، وكلام الفصحاء فهمًا صحيحًا ، يقول الزمخشري ، وهو حجة في هذا العلم : " ولا نرى بابا في البيان أدق ، ولا ألطف من هذا الباب ، ولا أنفع ، ولا أعون على تعاطي تأويل المشتبهات من كلام الله ، وكلام نبيه(ﷺ) وكلام صحابته(رضي الله عنهم) " (٣) .

وقد كان الدافع لاختيار هذا الموضوع :

أولا ــ خدمة القرآن الكريم ــ وهو شرف لا يعادله شرف ــ ببيان عظمته،وروعة إعجازه، وسعة اللغة العربية ، وسموها التي وسعت القرآن الكريم لفظا ومعنى .

ثانيا ــ إبراز بلاغة التورية ، وأثرها في تفسير الآيات القرآنية .

ثالثا ــ الإسهام في تحقيق الدعوة إلى التفكر والتدبر والتأمل في آيات القرآن الكريم ، التي أمرنا الله به في كثير من آياته .

رابعا ــ خلو الساحة البلاغية من دراسة التورية ، وتتبعها في القرآن الكريم .

مشكلات البحث : تكمن مشكلات البحث في محاولة الباحث الإجابة عن الأسئلة الآتية: ما مفهوم التورية ؟ وما أهميتها ؟ وما مفهوم المتشابه في كتاب الله ؟ وما الآيات التي وردت فيها التورية ؟ و ماذا يضيرنا لو لم نفسر بعض الآيات المتشابهات بها ؟

---

(١) راجع : ابن حجة الحموي: خزانة الأدب ، ج٢ ،ص٤٠، طبعة مكتبة الهلال ببيروت ، سنة ١٩٩١م .

(٢) ابن حجة الحموي : مصدر سابق ، ص ج٢ص١٠٧.

(٣) راجع : الزمخشري : الكشاف ج٤، ص ٤٠، طبعة دار الفكر للطباعة والنشر .

عناصر البحث : لقد قسمت هذا البحث إلى مقدمة ، وثلاث محاور ، وخاتمة : أما المقدمة فهي التي بصدد الحديث عنها ، مهدتها بالحديث عن أهمية التورية ،وسبب اختيار الموضوع ، وأسئلة البحث ، ثم منهج البحث وخطته . جاء المحور الأول ــ (بين التورية والمتشابه) ، تحدثت فيه عن : مفهوم التورية لغةً، واصطلاحًا ، وسر جمالها ، وكذا مفهوم المتشابه في كتاب الله، وما علاقته بالتورية .أما المحور الثاني : فهو يكشف عن نقاب التورية في القرآن الكريم .وقسمته إلى جزأين:أحدهما ــ كان عن التورية في بعض آيات الصفات، وكيفية توجيهها توجيهًا يتفق مع منهج أهل السنة والجماعة . والآخر ــ جاء في التورية في بعض الآيات الأخرى.مستفيدًا في كل ذلك من بعض ما كتبه المفسرون قديمًا وحديثًا في تفسير الآيات التي وردت فيها التورية ، وتوجيهاتهم البلاغية لها . أما المحور الثالث ــ فكان إجابةً عن سؤل البحث : ماذا يضيرنا لو لم نفسر بعض الآيات بالتورية ؟ ثم جاءت الخاتمة تلملم البحث، وتفصح عن أهم نتائجه .وأخيرًا : وضعت قائمةً بمراجع البحث ومصادره. والله وحده ولي التوفيق .

المحور الأول ــ بين التورية والمتشابه:

أولا ــ مفهوم التوريــة لغةً ، واصطلاحًا:

(أ) **التورية في اللغة : إخفاء الشيء ، قال تعالى : ﴿ فَبَعَثَ اللّهُ غُرَاباً يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَـذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾ [المائدة:٣١] ، وقال تعالى ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشاً وَلِبَاسُ التَّقْوَىَ ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٦]**. والتورية مصدر : وَرَّيْتُ الخبر تَوْرِيَةً، ووَرَّيت الخبر أُوَرِّيه تَوْرية، إذا سترتَهُ وأظهرْتَ غَيْرَهُ ، كَأَنَّهُ مَأْخُوذٌ من وَرَاءِ الْإِنْسَانِ ، كَأَنَّهُ يَجْعَلُهُ وَرَاءَهُ حَيْثُ لَا يُظْهَرُ ذِكْرَهُ.(٤)، قَالَ النَّوَوِيُّ فِي أَذْكَارِهِ : وَمَعْنَاهَا أَنْ يُطَلِّقَ لَفْظًا هُوَ ظَاهِرٌ فِي مَعْنًى وَيُرِيدُ بِهِ مَعْنًى آخَرَ يَتَنَاوَلُهُ ذَلِكَ اللَّفْظُ وَلَكِنَّهُ خِلَافُ ظَاهِرِهِ (٥). ووَرَّى الرجلُ عَنْ كَذَا ، إِذَا أَرَادَهُ وَأَظْهَرَ غيره ، ورسول الله (ﷺ) كان إذا أراد سَفَرًا (أي غزوة) وَرَّى بغيره (٦).أى كَنَّى عنه وسَتَره (٧) وأوْهَمَ غيره . هذا هو المعنى اللغوي للتورية .

(ب) **أما المعنى الاصطلاحي لها فهو** : أن يذكر المتكلم لفظا مفردًا ، له معنيان : حقيقيان ، أو حقيقة ومجاز ، أحدهما قريب ، ودلالة اللفظ عليه ظاهرة . والآخر بعيد ، ودلالة

---

(٤) انظر الجوهري : الصحاح في اللغة مادة (ورى)،ج٢،ص ٢٧٦.أيضا ــ الأزهري : تهذيب اللغة ،مادة (ورى) ج٥ ، ص ١٦٢ ، و ابن حجة الحموي : خزانة الأدب ، ج٢ ، ص ٣٩ ، طبعة مكتبة الهلال ببيروت ، سنة ١٩٩١م .

(٥) راجع شيخ الإسلام زكريا الأنصاري : أسنى المطالب في شرح روض الطالب، ج٢ ، ص٢٨٢ ،الطبعة الأولى ، دار الكتب العلمية - بيروت ، تحقيق : د . محمد محمد تامر ،سنة ١٤٢٢ هـــ - ٢٠٠٠م.

(٦) راجع : المعجم الوسيط ، ج ٢ ص١٠٢٨مادة (ورى) ، مجموعة من المؤلفين:(إبراهيم مصطفى ــ أحمد الزيات ــ حامد عبد القادر ــ محمد النجار)، تحقيق مجمع اللغة العربية ، ط دار الدعوة .، وابن منظور : لسان العرب ، ج ١،ص٧٠٨
الطبعة الأولى ، دار صادر – بيروت .

(٧) محمود بن عمر الزمخشري : الفائق في غريب الحديث ، ج٤ ص ٥٣،الطبعة الثالثة ، دار للمعرفة – لبنان ،تحقيق : علي محمد البجاوي –محمد أبو الفضل إبراهيم.

اللفظ عليه خفية ، فيريد المتكلم المعنى البعيد ، ويوري عنه بالمعنى القريب ، فيتوهم السامع أول وهلة أنه يريد القريب ، وهو ليس كذلك ، ولأجل هذا سمي هذا النوع إيهاما .(٨)

وتسمى التورية ـــ أيضا ـــ بالإيهام ، أو المخالطة ، أو التوجيه (٩)، أو التخيير، والتورية أولى في التسمية لقربها من مطابقة المسمى (١٠).

ثانيا ـــ المتشابه في كتاب الله : هو اللفظ الذي يتجاذبه ، أو يحتمله أكثر من معنى، وليس أمامنا ما يجزم بأن أحد المعنيين هو المراد ، وأن المعنى الثاني غير مراد ، بمعنى أن كلا المعنيين مرادان ، وربما تكون للفظ ثلاثة معان ، و تكون كلها محتملة ، ومرادة ـــ أيضا ـــ وكأنَّ الله فتح من هذا التعبير أمامنا بابًا لتنوع المعنى ، وتلك عظمة القرآن الكريم ، وسر من أسرار بلاغته التي أعجزت فصحاء العرب وبلغاءهم جميعا قديما وحديثا إلى أن تقوم الساعة .

وكما وردت آيات متشابهات في القرآن الكريم ، وردت أيضا آيات المحكمات ، وأخر مبهمات ، قال تعالى : **﴿ هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ في قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الألْبَابِ ﴾** [آل عمران: ٧] . *فالمحكم في كتاب الله* : هو ما أحكم بيانه ، و هو الأغلب فيما نقرأ من الآيات القرآنية ، ليكون أصلاً للرجوع إليه في تنفسر المتشابه ، *أما المبهم* :

---

(٨) راجع ابن حجة الحموي : خزانة الأدب ، ج٢ ، ٣٩ ، وأبو الإصبع المصري : تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن ، ص ٢٦٨ ، طبعة لجنة إحياء التراث بالقاهرة ، تحقيق د. حفني محمد شرف ، سنة ١٣٨٣هـــ ، وقد أورد ابن حجة الحموي في خزانته أكثر من تعريف للتورية وإن اختلفت هذه التعريفات لفظا ، فإنها اتفقت معنى ، ولا تخرج جميعها عن مضمون هذا التعريف . راجع أيضا ـــ التورية ، مفهومها ، وأنواعها ،وأهميتها ،في مؤلفنا ، من روائع البديع في القرآن الكريم ، ص ١٢١ وما بعدها، طبعة مكتبة الآداب بالقاهرة ، سنة ٢٠٠١م .

(٩) راجع بدر الدين الزركشي : البرهان في علوم القرآن ، ج٣ ، ص ٤٥٥ ،ط٢ ، دار المعارف للطباعة والنشر ببيروت .

(١٠) أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفومي: الكليات (معجم في المصطلحات والفروق اللغوية) ،ج١ ، ص ٤٢١، طبعة مؤسسة الرسالة – بيروت ، تحقيق: عدنان درويش – محمد المصري،١٤١٩هـــ – ١٩٩٨م.

هو الذي خفي معناه كله ، أو بعضه . وليس هذان النوعان بمجال حديثنا هنا ، وإنما حديثنا عن النوع الثالث وهو المتشابه الذي يمكن أن نفسره من خلال التورية.

وهذا الذي يسمى متشابها في علوم القرآن يسمى في البلاغة العربية بالتورية ، والتي هي من أروع المحسنات البلاغية البديعية المعنوية وأسماها على الإطلاق .

أمثلة نوضح من خلالها مفهوم التورية ، وأهميتها وسر جمالها :

وقبل الحديث عن التورية في القرآن الكريم ، وأثرها في تفسير الآيات المتشابهة نذكر بعض الأمثلة التي تجلي لنا مفهوم التورية وأهميتها ، وسر جمالها جلاءً مشرقًا ، ووضوحًا لا لبس فيه :

دخلت امرأة على هارون الرشيد وعنده جماعة من وجوه أصحابه ، فقالت : يا أمير المؤمنين أقر الله عينك ، وفرحك بما آتاك ، وأتم سعدك ، لقد حكمت فقسطت . فقال لها : ممن المرأة ؟ فقالت : من آل برمك ، ممن قتلت رجالهم ، وأخذت أموالهم ، وسلبت نوالهم .فقال:أما الرجال فقد مضى فيهم أمر الله ، ونفذ فيهم قدره ، وأما المال فمردود إليك ، ثم التفت إلى الحاضرين من أصحابه فقال : أتدرون ما قالت هذه المرأة ؟ فقالوا : ما نراها قالت إلا خيرًا .قال : ما أظنكم فهمتم ذلك ، أما قولها : أقر الله عينك ، أي أسكنها عن الحركة ، وإذا سكنت العين عن الحركة عميت ، وأما قولها : وفرحك بما آتاك ، فأخذته من قوله تعالى: **﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُواْ بِمَا أُوتُواْ أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴾**[الأنعام:٤٤] ، وأما قولها : وأتم الله سعدك ، فأخذته من قول الشاعر:

إِذَا تَمَّ أَمْرٌ بَدَا نَقْصُهُ تَرَقَّبْ زَوَالًا إِذَا مَا قِيلَ تَم

وأما قولها : لقد حكمت فقسطت ، فأخذته من قوله تعالى : **﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَباً ﴾** [الجن: ١٥]، فتعجبوا من ذلك !! (١١)

ــ فالمرأة البرمكية قالت كلاما ، تحمل ألفاظُهُ معنيين ، أحدهما قريب ، ودلالة اللفظ عليه واضحة ، وهو المدح والثناء والدعاء لهارون الرشيد ، وهو المعنى الذي فهمه الجالسون في

---

(١١) انظر شهاب الدين محمد بن أحمد أبي الفتح الأبشيهي: المستطرف في كل فن مستظرف ، ج١،ص١٠١،الطبعة الثانية ،دار الكتب العلمية – بيروت ، د.مفيد محمد قميحة ، سنة ١٩٨٦م .

حضرته ، وهذا المعنى لم ترده المرأة . والمعنى الآخر المستتر، ودلالة اللفظ عليه خفية ، هو الذم والإهابة لهارون الرشيد ، والنيل منه ، والدعاء عليه ، وهذا الذي قصدته البرمكية ، وفهمه هارون الرشيد من كلامها، ولم يستطع أن يقتص من المرأة ، لأنه لا يقدر أن يثبته عليها ، ولم يشق صدرها حتى يعلمَ أي المعنيين تقصد: الحسن ، أم السيئ، فالقلوب صناديق مغلقة لا يعلمها إلا الله، فلو واجهها بمقصدها ، لقالت : ما أردت إلا المعنى الحسن ، فلم يكن أمام هارون الرشيد إلا أن يكافئها لبلاغتها ، ويعطيها أموال أهلها لفصاحتها .

ـــ ونذكر مثالا آخر للتورية ليكون مفهومنا لها أكثر بياناً وإيضاحًا ، وهذا المثال من حديث جرى بين عمر بن الخطاب و حذيفة بن اليماني(رضي الله عنهما) : سأل عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) يوما حذيفة هذا السؤال :كيف أصبحت يا حذيفة ؟ فأجابه حذيفة مداعبا له، مازحا معه : أصبحت يا أمير المؤمنين ، أكره الحق ، وأحب الفتنة ، وأصلي بغير وضوء ، ولي في الأرض ما ليس لله في السماء . فغضب عمر من ذلك الصحابي الجليل غضبا شديدا ، وعنفه على ذلك القول كثيرا الذي ظاهره كفر . ولكن عليا (كرم الله وجهه) فهم قول حذيفة فهمًا صحيحًا ، وعَرَفَ أنه لا يريد المعنى الحقيقي لهذه العبارات، وإنما هو يمزح مع أمير المؤمنين، فقال : يا أمير المؤمنين : والله ما أخطأ الرجل الحق ، بل أصابه ، فقد قال : أصبحت أكره الحق. ومن منَّا يحب الموت ، وأن الموت علينا حق قال تعالى : **﴿ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾** [ق: ١٩] .

وقال : وأحب الفتنة ، وكلنا ذلك الرجل ، قال تعالى : **﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾**[التغابن : ١٥]. وقال : وأصلي بغير وضوء ، ومن منا يتوضأ ليصلي على رسول الله (ﷺ) .وقال : ولي في الأرض ما ليس لله في السماء ، فإن له الزوجة والولد ، وليس لله ذلك ، قال تعالى : **﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ{١} اللَّهُ الصَّمَدُ{٢} لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ{٣} وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ{٤}﴾** [الإخلاص: ١ – ٤] .

فحذيفة استخدم في كلامه ، مداعبًا عمرَ مازحًا معه بالحق ـــ استخدم(التورية) ، فذكر في حديثه ألفاظًا ، لها معنيان : معنى قريب ، ودلالة اللفظ عليه واضحة، وهو المعنى الذي فهمه مباشرةً أميرُ المؤمنين عمر، و لم يقصده حذيفة ، والآخر مستتر وراء المعنى الظاهر ، وهو الذي فهمه عليٌّ (كرم الله وجهه) ، ووضحه لعمر ، والحضور بعد ذلك .

ذلك هي التورية : التي هي من أروع المحسنات البلاغية البديعية المعنوية ، والتي يستطيع المسلم بها أن يتخلص مما يخشى عواقبه ، وينأى بنفسه عن الكذب .نحو قول أبي بكر الصديق (رضي الله عنه) وقد سُئل عن النبي (ﷺ) حين الهجرة ، فقيل له : من هذا ؟ فقال : هادي يهديني السبيل .

فكلمة (الهداية) يتجاذبها معنيان ، أحدهما (قريب) هو : الدلالة على الطريق الموصل إلى الجهة المقصودة ، والآخر (بعيد) يدرك بعد طول تفكير وتأمل ، هو : هداية الدين .
ففهم السائل المعنى الأول القريب (هادي الطريق) وهو الدليل في السفر وهذا المعنى لم يقصده أبو بكر (رضي الله عنه) وورى به بالمعنى البعيد وهو أنه(ﷺ) هاد يهدية إلى الإسلام .
ـــ وأعظم من ذلك كله أن يفهم بها بعض آيات القرآن الكريم المتشابهة، وكلام سيد المرسلين وكلام الفصحاء فهمًا صحيحًا :

فمن ذلك ما روي عن النبي (ﷺ) لما خرج يريد غزو المشركين في غزوة بدر ، وانتهى إلى نصف الطريق من المدينة من مكة ، وجد رجلا أعرابيا فسأله : ما علمك بقريش ومحمد ؟ فقال الأعرابي : مم أنت ؟ فقال له النبي (ﷺ) حتى تخبرني ، فقال الأعرابي : بلغني أن قريشا خرجوا يوم كذا ، ومحمد خرج يوم كذا ، فإن كان هذا صادقا فمحمد بموضع كذا ، وقريش بموضع كذا، ثم استنجز الأعرابي الوعد ، فقال النبي (ﷺ) أنا من ماء ، ومضى .

فكلمة "ماء " في حديث رسول الله (ﷺ)) لها معنيان أحدهما (قريب) أي أنه من العراق ، لأن من أسماء العراق (ماء) ، أو قد يكون من قبيلة يقال لها (ماء) [١٢] ، أما المعنى الثاني وهو المعنى البعيد الذي يدرك بعد التأمل هو أنه (ﷺ) **﴿ خُلِقَ مِن مَّاء دَافِقٍ{٦} يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ{٧} ﴾** [الطارق: ٦ – ٧]، وهذه التورية من التورية " المجردة " التي لم يذكر فيها ما يلائم المعنى القريب [١٣].

بل تعد التورية خير وسيلة للدُّعابةِ والطرافة ، والمزاح بالحق ، نحو ما مر بنا من مداعبة حذيفة لأمير المؤمنين عمر ، ونحوه قول الحبيب محمد (ﷺ) مازحا مع عجوز ، سألته الدعاء قائلة : أدع الله أن يدخلني الجنة يا رسول الله. فقال (ﷺ) مازحا : إن الجنة لا يدخلها العجائز .

---

[١٢] انظر ابن حجة الحموي : خزانة الأدب ، ص ٢٩٦ .

[١٣] راجع مؤلفنا : من روائع البديع في القرآن الكريم ، " التورية المجردة " ص : ١٢٤

فولت المرآة وهي تبكي ، فقال (ﷺ) : أخبروها أنها ليست يومئذ بعجوز ، وقرأ الآية :﴿ عُرُباً أَتْرَاباً{٣٧} ﴾[الواقعة: ٣٧].و(بـ) جمع عروب ،و (العرُوبُ) هي المتحببة إلى زوجها ، الحسنة التبعل ، و(جـ) مستويات في السن ، بنات الثلاث والثلاثين ، وأزواجهن أيضا كذلك.(١٤)

فالمرأة العجوز فهمت لفظة " العجائز "المعنى القريب وهو : الكبر والتقدم في السن ، وهو المعنى الذي لم يرده الرسول (ﷺ) وإنما المعنى الذي أراده (صلوات الله وسلامه عليه) بـــــ (العجائز) المعنى الذي بيَّنَهُ لها لاحقا ، إن العجائز يتبدل عجزهن صبا في الجنة ، فلا تدخل الجنة عجوز ، وهو في سن العجز والشيخوخة .تلك هي التورية.

المحور الثاني ــ التورية في الآيات القرآنية :

ورد هذا المحسن البديعي في بعض آيات القرآن الكريم ليس كثيرًا ، وإنما بقدر الحاجة إليه، ليؤدي معنىً إلهيًا مقصودًا في السياق الذي وردت فيه ، ويبرهن على عظمة الأسلوب القرآني ، وسمو بلاغته ، ورقي فصاحته ، ويفصح عن إعجازه الذي لا يمكن أن يجاريه أحد من البشر إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

ــ من ذلك قوله تعالى من سورة الرحمن :﴿ الرَّحْمَنُ{١} عَلَّمَ الْقُرْآنَ{٢} خَلَقَ الْإِنسَانَ{٣} عَلَّمَهُ الْبَيَانَ{٤} الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ{٥} وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ{٦}﴾[الرحمن: ١ – ٦].

وشاهدنا في هذه الآيات الكريمة قوله تعالى : ﴿ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴾ فمن يسمعها يتوهم لأول وهلة ، أن المراد بكلمة (النجم) هنا هو : الكواكب التي تدور في السماء ، ولاسيما مع تأكيد الإيهام بذكر ﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴾قبلها ، وهذا هو المعنى القريب ، وهو غير مراد في الآية الكريمة ، وهذا المعنى ذهب إليه مجاهد وقتادة ، فقالا: النجم " هو الكوكب ، وسجوده طلوعه . "(١٥).

---

(١٤) الزمخشري (نفس المصدر) ج٦، ص ٢٨ ،وما بعدها (طبعة العبيكان) .

(١٥) أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي النيسابوري : الكشف والبيان ،(سورة الرحمن) ج٩ ، ص ١٧٨، ط١، دار إحياء التراث العربي – بيروت – لبنان ، تحقيق : الإمام أبي محمد بن عاشور ســنة ١٤٢٢ هـــ – ٢٠٠٢ م.

ــ إما (المعنى البعيد) هو المعنى الذي استتر وراء المعنى القريب ، لكلمة النجم : وهو ما ذهب إليه ابن عباس وغيره : " النجم : النباتُ الذي لا ساقَ له، والشجر ما له ساق "(١٦). وهو المعنى المراد في الآية ، ونوع هذه التورية (مرشحة)لأنه ذكر فيها لازم المعنى القريب (المورى به)(١٧) .

ــ أيضا هنا تورية أخرى في الآية في قوله تعالى : ﴿ يَسْجُدَانِ ﴾: فسجودهما يحتمل معنيين :

المعنى الأول ــ وهو المعنى الحقيقي للفظ ، وهو السجود بمعناه المعروف ، أي أن النجم والشجر يسجدان لله (عز وجل) ، ولكننا لا نعلم كيفية سجودهما لله سبحانه وتعالى ، ولا كنهها، فهو كما قال يسجدان ، فهما يسجدان .

ــ قال الفراء : سجودهما أنهما يستقبلان الشمس إذا طلعت ، ثم يميلان معها حتى ينكسر الفيء . وقال الزجاج : سجودهما دوران الظل معهما ، وقال : البغوي : " وسجودهما سجود ظلهما كما قال :﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْاْ إِلَى مَا خَلَقَ اللّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلاَلُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالْشَّمَآئِلِ سُجَّداً لِلّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ{٤٨} ﴾ [النحل:٤٨]"(١٨) .

والمعنى الآخر ــ هو (المعنى الإيحائي) المصاحب للفظ :

قال الزمخشري : " وسجودهما : انقيادهما لله فيما خلقا له ، وأنهما لا يمتنعان ، تشبيهاً بالساجد من المكلفين في انقياده" (١٩). فالله سبحانه وتعالى يريد أن يقول لنا : إن الشمس والقمر يجريان في بروجهما ، ومنازلهما، (بحسبان) أي بحساب معلوم ، وتقدير سوي ، وفي ذلك منافع

---

(١٦) شمس الدين القرطبي (المتوفى : ٦٧١هـ) :الجامع لأحكام القرآن ، ج ١٧ ، ص ١٥٢، طبعة دار عالم الكتب، الرياض، المملكة العربية السعودية، تحقيق هشام سمير البخاري، سنة ١٤٢٣هـ ــ ٢٠٠٣م.

(١٧) " التورية المرشحة " وسميت مرشحة لتقويتها بذكر لازم المورى به ، سواء قبل لفظ التورية أو بعدها .راجع كتابنا : من روائع البديع ، ص ١٢٦ وما بعدها .

(١٨) راجع : محيي السنة ، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي (المتوفى : ٥١٠هـ): معالم التنزيل ، ج٧ ، ص٤٠٠ ، ط٤ ، دار طيبة للنشر والتوزيع ، حققه وخرج أحاديثه محمد عبد الله النمر – عثمان جمعة ضميرية – سليمان مسلم الحرش ، سنة ١٤١٧ هـ – ١٩٩٧ م .

(١٩) راجع الزمخشري : الكشاف ، ح ٦، ص ٦ (ط . العبيكان) .

للناس عظيمة ، منها علم السنين والحساب وسجودهما هو انقيادهما لله فيما خلقا له ، وأنهما لايمتنعان ، تشبيها لهما بالساجد من المكلفين في انقياده .(والله أعلى وأعلم).

ونذكر من ذلك أيضا قوله تعالى من سورة الأنعام : **﴿ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ{٦٠} ﴾** [الأنعام: ٦٠] ، وقوله تعالى : **﴿ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ﴾** أي هو الذي ينيمكم في الليل ، فيقبض نفوسكم التي بها تميزون ، وليس ذلك موتا حقيقة ؛ بل هو قبض الأرواح عن التصرف بالنوم كما يقبضها بالموت. والتوفي استيفاء الشيء. وتوفي الميت استوفى عدد أيام عمره ، والذي ينام كأنه استوفى حركاته في اليقظة . والوفاة: الموت. وأوفيتك المال ، وتوفيته ، واستوفيته إذا أخذته أجمع .

ــ ويقال: إن الروح إذا خرج من البدن في المنام تبقى فيه الحياة ؛ ولهذا تكون فيه الحركة والتنفس، فإذا انقضى عمره خرج روحه وتنقطع حياته، وصار ميتا لا يتحرك ولا يتنفس. وقال بعضهم. لا تخرج منه الروح، ولكن يخرج منه الذهن . ويقال: هذا أمر لا يعرف حقيقته إلا الله تعالى.وهذا أصح الأقاويل، (والله أعلم).[٢٠] .**﴿ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ ﴾** أي في النهار ، ويعني اليقظة **﴿لِيُقْضَى أَجَلٌ مُّسَمًّى ﴾** أي ليستوفي كل إنسان أجلا ضرب له. وقرأ أبو رجاء وطلحة بن مصرف **﴿ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُّسَمًّى ﴾** أي عنده .

ــ وفي الآية تقديم وتأخير، والتقدير : وهو الذي يتوفاكم بالليل ، ثم يبعثكم بالنهار ، ويعلم ما جرحتم فيه ؛ فقدم الأهم الذي من أجله وقع البعث في النهار. وقال ابن جريج **﴿ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ ﴾** أي في المنام. ومعنى الآية: إن إمهاله تعالى للكفار ليس لغفلة عن كفرهم ، فإنه أحصى كل شيء عددا ، وعَلِمَهُ وأثبتَهُ، ولكن ليقضي أجلا مسمى من رزق وحياة، ثم يرجعون إليه فيجازيهم. وقد دل على الحشر والنشر بالبعث ؛ لأن النشأة الثانية منزلتها بعد الأولى كمنزلة اليقظة بعد النوم في أن من قدر على أحدهما فهو قادر على الآخر.[٢١]

---

[٢٠] شمس الدين القرطبي (المتوفى : ٦٧١هـ) :الجامع لأحكام القرآن، ج ٧ ، ص٥ ،طبعة دار عالم الكتب، الرياض، للمملكة العربية السعودية، تحقيق هشام سمير البخاري،١٤٢٣هـ ــ٢٠٠٣م .

[٢١] شمس الدين القرطبي : نفس المصدر والصفحة .

والشاهد في الآية الكريمة هو قوله تعالى :﴿ مَا جَرَحْتُم ﴾وهي الكلمة التي تكمن فيها التورية ، ففي هذه اللفظة معنيان :

ــ معنى قريب ظاهر ، وهو(الجرح) : إحداث تمزق ظاهر في الجسم (وهو غير مراد) هنا .

ــ ومعنى بعيد خفي يدرك بإمعان الفكر والتأمل في الآية ، وهو : ارتكاب الذنوب واقترافها (وهو المعنى المراد) في الآية الكريمة (والله أعلم) .

ــ ومثله قوله تعالى **﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلاَ تَقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً{٢٩} ﴾** [النساء: ٢٩] فالتورية جاءت في لفظة **﴿ وَلاَ تَقْتُلُواْ ﴾**، وقد قرأها الحسن "تُقَتِّلوا" على التكثير [٢٢].

فالمعنى القريب (**القتل**) وهو إزهاق الروح . أي أن في الآية الكريمة نهيًا عن أن يقتل بعض الناس بعضا ، أو أن يقتل الرجل نفسه ، بقصد منه للقتل في الحرص على الدنيا وطلب المال، بأن يحمل نفسه على الغرر المؤدي إلى التلف. أو ارتكاب ما يوجب القتل ، ويزيل عصمة الدماء كالارتداد والزنا بعد الإحصان والمحاربة ، وقتل النفس بغير حق ونحو ذلك .وقد " عبر عن نوعهم بأنفسهم مبالغة في الزجر عن القتل حتى كأن قتلهم قتل أنفسهم" [٢٣]

ــ ويحتمل أن يقال: "ولا تقتلوا أنفسكم" في حال ضجر أو غضب ؛ فهذا كله يتناول النهي. فالضمير الذي للخطاب يصح لكل واحد ممن تحتمله أن يكون منهياً ، ومنهياً عنه ، وقد احتج عمرو بن العاص بهذه الآية الكريمة حين امتنع من الاغتسال بالماء البارد حين أجنب في غزوة ذات السلاسل خوفا على نفسه منه؛ فقال : " احتلمت في ليلة باردة في غزوة ذات السلاسل فأشفقت إن اغتسلت أن أهلك؛ فتيممت ثم صليت بأصحابي الصبح؛ فذكروا ذلك لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) فقال يا عمرو: "صليت بأصحابك وأنت جنب" ؟ فأخبرته بالذي منعني من

---

[٢٢] أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي:المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ط١، دار الكتب العلمية - لبنان ، تحقيق : عبد السلام عبد الشافي محمد، سنة ١٤١٣هـ ــ ١٩٩٣م. أيضا ــ شمس الدين القرطبي نفس المصدر ، ج٥ ص١٥٦ .

[٢٢] شهاب الدين محمود الألوسي (المتوفى : ١٢٧٠هـ): روح المعاني في تفسير القرآن العظيم ...، ج٢، ص ٤٢٥.

الاغتسال وقلت: إني سمعت الله عز وجل يقول: "وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُـــمْ رَحِيمـــاً" فضحك نبي الله (ﷺ) و لم يقل شيئا."[٢٤]

والمعنى البعيد (**المعنى الإيحائي**) أي أن المراد بـــ (القتل) هو ارتكاب المعاصي والذنوب والآثام ، فقد جعل الله(سبحانه وتعالى) ارتكاب المعاصي والذنوب بمثابة قتل الإنسان نفسه .

و قد ذهب إلى هذا المعنى الإمام ابن كثير فقد قال : وقوله : " وَلاَ تقتلوا أَنْفُسَكُمْ " أى بارتكاب محارم الله – وتعاطي معاصيه ، وأكل أموالكم بينكم بالباطل "[٢٥].

ونرى أن هذه المعاني كلها مرادة ، ويسمى هذا في علم البلاغة (بالتورة المجردة) وهي التي لا يذكر فيها لازم من لوازم المورى به (أي المعنى القريب) ، ولا لازم من لوازم المورى عنه (أي المعنى البعيد) . فالجملة القرآنية تتناول كل هذه المعاني ، فهي تنهى المسلم عن أن يقتل نفسه ، كما أنها تنهاه عن أن يقتل غيره ، وهى أيضا تنهاه عن ارتكاب المعاصي التي تؤدى إلى هلاكه ...إلخ.

ونذكر من ذلك ـــ أيضا ـــ قوله تعالى مخاطبا سيد البشر محمد (ﷺ) : **﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ{١} قُمْ فَأَنذِرْ{٢} وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ{٣} وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ{٤} وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ{٥} ﴾** [المدثر: ١ – ٥] .

فالتورية في الآية في قوله تعالى : (كَّ) إذ تحمل هذه اللفظة القرآنية أكثر من معنى في هذه الآية الكريمة ، وقد تكون ـــ أيضا ـــ كلها مرادة .

---

[٢٤] راجع : شمس الدين القرطبي (المتوفى : ٦٧١هـــ):لجامع لأحكام القرآن (سورة النساء)، ج٥، ص٢١٧ ، طبعة دار عالم الكتب، الرياض، المملكة العربية السعودية ، هشام سمير البخاري، سنة ١٤٢٣هـــ ـــ ٢٠٠٣م.، والحديث خرجه أبو داوود، في سننه :ج١ص٩٢ [٣٣٤] ، وأحمد في مسنده : ج٤ص٢٠٣ [١٧٨٤٥] ، قالا : ثنا يزيد بن أبي حبيب ، عن عمران بن أبي أنس ،عن عبد الرحمن بن جبير ، عن عمرو بن العاص، (فذكره) .

[٢٥] راجع ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ، ج٢ ، ص ٢٦٩ .

فالمعنى الأول ــ وهو المعنى الحقيقي : (الثياب) أي : الثياب التي يرتديها الإنسان ، ويستر بها عورته ، وعليه يكون معنى الآية : " أي قُـــمْ يا محمد (ﷺ) من دثارك ، وأنذر الناس ، وعظم الله ، وأغسل ثيابك بالماء ، فقد كان المشركون لا يتطهرون ، فأمره الله أن يتطهر ، وأن يطهر ثيابه " ، وهذا القول اختاره ابن جرير.

ــ وقال قتادة : " وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ " أي: طهرها من المعاصي (انتهى قوله) وكأني بقتادة، أراد أن يقول : إن الإنسان إذا ارتكب المعاصي ، لوث ثيابه ، فيجعلها الله قذرة في أعين الخلق جميعا ، حتى لو كانت أبهى الثياب وأبيضها وأنقاها .

وكانت العرب تسمي الرجل إذا نكث ولم يف بعهد الله إنه لَمُدنس الثياب. وإذا وفّى وأصلح : إنه لمطهر الثياب .

ــ وقال عكرمة ، والضحاك : لا تلبسها على معصية ، وقال الشاعر :

إذا المرءُ لم يَدْنَس منَ اللؤمِ عِرْضُه   فكُلّ رداء يَرْتَديه جَميلُ[٢٦]

ــ قال بدر الدين العيني :" قال الثعلبي : سئل ابن عباس عن هذه الآية فقال معناها لاتلبسها على معصية ولا على غدرة ، والعرب تقول للرجل إذا وفّى وصدق إنه طاهر الثياب ، وإذا غدر ونكث إنه لدنس الثياب ، وعن أبي بن كعب (رضي الله تعالى عنه) : لا تلبسها على عجب، ولا على ظلم ، ولا على إثم ، والبسها وأنت طاهر ، وعن ابن سيرين وابن زيد: نق ثيابك ، واغسلها بالماء ، وطهرها من النجاسة ، وذلك أن المشركين كانوا لا يتطهرون فأمره أن يتطهر ويطهر ثيابه وعن طاووس وثيابك فقصر وشمر لأن تقصير الثياب طهرة لها"[٢٧]

والمعنى الثاني ــ الثياب بمعنى القلب : فالعرب كانت تطلق الثياب على القلب ، كما قال امرؤ القيس:

أفاطمَ مَهلا بعض هَذا التَـــدَلُّل   وَإن كُنت قَد أزْمَعْت هَجْري فأجْمِلي
وَإن تَــكُ قَد سَـــاءتك مني خَليقَةٌ   فَسُلّي ثِيَـــابي مِن ثيابــك تَنْسُـــلِ

---

[٢٦] راجع ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ، ج ٨ ص ٢٦٢ ،طبعة ٢ ، دار طيبة للنشر والتوزيع ،تحقق : سامي بن محمد سلامة ، سنة ١٤٢٠هـــ - ١٩٩٩ م .

[٢٧] بدر الدين العيني الحنفي :عمدة القاري شرح صحيح البخاري، (سورة المدثر)ج٢٨، ص ٤٣٩.

ـ وقال سعيد بن جبير: " **وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ** " وقلبك ونيتك فطهر.[٢٨]

فيكون المعنى : طهر يا محمد((ﷺ)) قلبك من المعاصي ، والذنوب والأحقاد ، والضغائن ..إلخ.

ـ **بل تحتمل الكلمة معنى ثالثا** (إيحائيًا) وهو (الثياب) بمعنى (النساء) ، فقد وصف الله تعالى النساء باللباس في سورة البقرة ، فقال : ﴿ **أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَآئِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ** ﴾ [البقرة: ١٨٧] فعليه يحتمل معنى :(كَ وُ) أي طهر نساءك ، أي أحسن اختيارهن ، ولا تتزوج المشركات منهن ، ولو أعجبك جمالهن .وقد أوصى النبي (ﷺ) أمته بهذا الصنيع ، في بعض الأحاديث منها قوله (ﷺ) :" **تَخَيَّرُوا لِنُطَفِكُمْ وَأَنْكِحُوا الأَكْفَاءَ وَأَنْكِحُوا إِلَيْهِمْ**"[٢٩]، و قوله (ﷺ) :" " إياكم وخَضْرَاءَ الدِّمَنِ ، قيل : وما خضراء الدمن يا رسول الله ؟ قال : المرأة الحسناء في المنبت السوء "[٣٠]

ـ قال ابن السكيت :" شبهها بالبقلة الخضراء في دِمْنَةِ أرض خبيثة ؛ لأن الأصل الخبيث يحن إلى أصله ، فتجيء أولادها لأصلها في الغالب. فيجيب على اللبيب – إن ساعفته الأقدار – أن يختار لزراعته الأرض الطيبة ، وهي الأصل الطيب ، لتكون الفروع طيبة." [٣١] .

وهذا القول النبوي المعجز يؤكده ما كشفه علم الوراثة الحديث من أن الأب والأمّ يشتركان في تكوين الجنين بالمناصفة ، ويؤكد أثر الأعراق ، وأن بعض الصفات قد تظهر على الأبناء نتيجة وجودها في أحد أسلافهم مع عدم ظهورها في آبائهم وأجدادهم. وأن الكروموسومات تحمل الموروثات التي تكسب الجنين صفاته الخَلقية والخُلُقية، فلذا حث النبي ـ

---

[٢٨] راجع : ابن كثير : تفسير القرآن العظيم ، ج ٨ ص ٢٦٢ .

[٢٩] أخرجه ابن ماجة وغيره عن عائشة ، وقد صححه الشيخ الألباني بمجموع طرقه، في السلسلة الصحيحة رقم [١٠٦٧] .

[٣٠] أخرجه القضاعي في مسند الشهاب (٩٥٧)، والرامهرمزي في (أمثال الحديث) ج١ص١٢٠ رقم [٨٤]، قال العراقي في (تخريج الاحياء) : رواه الدارقطني في الأفراد، والرامهرمزي في الأمثال من حديث أبي سعيد الخدري، قال الدارقطني: تفرد به الواقدي وهو ضعيف، تخريج إحياء علوم الدين، رقم (١٣٤٢). وقال الحافظ ابن حجر فيه: متروك. كما في التقريب، وانظر السلسلة الضعيفة للألباني (١٤).

[٣١] انظر : ابن عجيبة (أحمد بن محمد بن المهدي الحسني الإدريسي الشاذلي الفاسي أبو العباس) : البحر المديد (تفسير سورة النور) ج٥ ص ٧٨، ط٢، دار الكتب العلمية ـ بيروت،١٤٢٣ هـ ـ ٢٠٠٢ م .

صلى الله عليه وسلم ــ على تخير الزوجة لما لها من الأهمية في النسل والذرية. والمعاني الثلاثة مجتمعة قد تكون مرادة في الآية الكريمة ، (والله أعلى وأعلم)

ــ ومن ذلك قوله تعالى: **﴿ فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ{١٧} وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيّاً وَحِينَ تُظْهِرُونَ{١٨}﴾** [الروم: ١٧ – ١٨]

فالتورية هنا على حسب من فسر المراد بالتسبيح هنا : الصلوات الخمس، فقوله : "حين تمسون " صلاة المغرب والعشاء ، وقوله " حين تصبحون " صلاة الفجر ، وقوله : " عشيا " صلاة العصر ، وقوله : " حين تظهرون " صلاة الظهيرة ، وقد قاله الضحاك ، وسعيد بن جبير ، و لم يذكره المفسر ابن كثير "[٣٢]

ــ ونحوه قول الله (عز وجل) **﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ وَلَـكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً{٤٤} ﴾** [الإسراء : ٤٤].

ــ وقوله تعالى : **﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ{٤١} ﴾**[النور:٤١].

ــ وقوله تعالى : **﴿ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلاَئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ{١٣} ﴾** [الرعد: ١٣].

ــ فقد نسب الله جلَّ في علاه في الآيات السابقة التسبيح إلى الرعد ، ونسبه أيضا ــ إلى السماوات والأرض ومن فيهن ، أي نسب التسبيح إلى كل شيء ، فما حقيقة هذا التسبيح ؟ أن كلمة التسبيح التي ينسبها الله تعالى في الآيات السابقة إلى الرعد وكل الأشياء، تحتمل معنيين:

١- المعنى الأول ــ (قريب وجلي ، ولا يحتاج إلى طول تأمل) وهو حقيقة التسبيح ، أي أن هذه الكائنات جميعًا لها لغةٌ خاصةٌ بها ، تسبِّحُ بها ربها خالقها وموجدها ومبدعها ، فهذا الصوت الذي نسمعه من البرق ، والمنبعث من طبقات السحب قد يكون تسبيحا حقيقيا ،ولكننا

---

[٣٢] راجع : محمد نسيب الرفاعي : اختصار تفسير ابن كثير ، ج٣، ص ٤٣٤ ، طبعة ٤، دار لبنان للطباعة والنشر ، سنة ١٩٨٣م.

لانعرفه ، لأنه بلغة غير لغتنا ، والدليل على ذلك قول الله (عز وجل) " **وَلَـكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ** " فإن فقّهك الله تعالى في لغاتهم لعلمت تسبيح الكائنات ، بدليل أنه علّم نبي الله سليمان (عليه السلام)منطق الطير ، وسمع النملة تقول : ﴿ **حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِي النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ{١٨} فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ{١٩}** ﴾ [النمل: ١٨-١٩] ،وسمع قول الهدهد عندما أخبره بما رآه عن بلقيس ملكة سبأ قائلا : ﴿ **وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ{٢٤} أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ{٢٥}** ﴾ [النمل: ٢٤ - ٢٥] ، وبين لنا القرآن أن الجبال كانت تسبح لله ، مع نبي الله داوود وبتسبيحه ، فقال تعالى في شأنه (عليه السّلام) ﴿ **اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ{١٧} إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ{١٨}** ﴾[ص: ١٧ - ١٨] ؛ بل إنه ثبت أن صحابة رسول الله (ﷺ)كانت تسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل ،فقد روى الإمام البخاري في صحيحه عن ابن مسعود (رضي الله عنه) أنه قال: " ...**وَلَقَدْ كُنَّا نَسْمَعُ تَسْبِيحَ الطَّعَامِ وَهُوَ يُؤْكَلُ**" أي في عهد رسول الله (ﷺ) غالباً (٣٣) فكلّ مخلوق في السموات أو في الأرض قد علم

---

(٣٣) الحديث أخرجه البخاري في صحيحه في المناقب باب علامات النبوة في الإسلام : ج ٤ص٢٣٥(٣٥٧٩) قال: حدثني محمد بن المثنى ، حدّثنا أبو أحمد الزبيري ، حدّثنا إسرائيل ، عن منصور . ، وأخرجه الإمام أحمد في مسنده : ج١ ص ٣٩٦ (٣٧٦٢) قال : حدّثنا معاوية بن هشام ، حدّثنا سفيان ، عن الأعمش . وفي : ح١ص٤٠١(٣٨٠٧) قال : حدّثنا عبد الرزّاق ، أنبأنا سفيان ، عن الأعمش . وفي :ج١ص٤٦٠(٤٣٩٣) قال : حدّثنا الوليد بن القاسم بن الوليد ، حدّثنا إسرائيل ، عن منصور . و(الدارِمِي) ٢٩ قال : أَخبَرنا عُبَيد الله بن موسى، عن إسرائيل ، عن منصور . وفي : (٣٠) قال : أَخبَرنا محمد بن عبد الله بن نمير، حدّثنا أبو - الجواب ، عن عمار بن رُزَيق ، عن الأعمش. و"التِّرمِذي" ٣٦٣٣ قال : حدّثنا محمد بن بشار ، حدّثنا أبو أحمد الزبيري ، حدّثنا إسرائيل ، عن منصور . و"النَّسائي" ١/٦٠ ، وفي "الكبرى" ٨٠ و٨١ قال : أَخبَرنا إسحاق بن إبراهيم ، قال : أنبأنا عبد الرزّاق ، قال : أنبأنا سفيان ، عن الأعمش . وابن خزيمة ٢٠٤ قال : حدّثنا محمد بن بشار ، حدّثنا أبو أحمد الزبيري ، حدّثنا إسرائيل ، عن منصور. كلاهما (منصور ، والأعمش) عن إبراهيم ، عن علقمة ، فذكره.

صلاته وتسبيحه، وأرشده الله إلى طريقة معيَّنة، ومسلك خاص في عبادته. وهو المعنى الذي تسكن إليه النفس .

ـــ و عَنْ أَبِي ذَرٍّ(رَضِيَ اللَّهُ عَنْه) ، قَالَ : كُنْتُ أَتْبعُ خَلَوَاتِ رَسُولِ الله (ﷺ)، فَذَهَبْتُ يَوْمًا ، فَإِذَا هُوَ قَدْ خَرَجَ فَاتَّبَعْتُهُ ، فَجَلَسَ فِي مَوْضِعٍ ، فَجَلَسْتُ عِنْدَهُ، فَجَاءَ أَبُو بَكْرٍ ، فَسَلَّمَ وَجَلَسَ عَنْ يَمِينِ النَّبِيِّ ، ثُمَّ جَاءَ عُمَرُ فَجَلَسَ عَنْ يَمِينِ أَبِي بَكْرٍ ، ثُمَّ جَاءَ عُثْمَانُ فَجَلَسَ يَمِينَ عُمَرَ ، قَالَ : فَتَنَاوَلَ النَّبِيُّ (ﷺ)حَصَيَاتٍ ، فَسَبَّحْنَ فِي يَدِهِ حَتَّى سَمِعْتُ لَهُنَّ حَنِينًا كَحَنِينِ النَّحْلِ ، ثُمَّ وَضَعَهُنَّ فَخَرِسْنَ ، ثُمَّ وَضَعَهُنَّ فِي يَدِ أَبِي بَكْرٍ فَسَبَّحْنَ فِي يَدِهِ حَتَّى سَمِعْتُ لَهُنَّ حَنِينًا كَحَنِينِ النَّحْلِ ، ثُمَّ وَضَعَهُنَّ فَخَرِسْنَ ، ثُمَّ تَنَاوَلَهُنَّ فَوَضَعَهُنَّ فِي يَدِ عُمَرَ فَسَبَّحْنَ فِي يَدِهِ حَتَّى سَمِعْتُ لَهُنَّ حَنِينًا كَحَنِينِ النَّحْلِ ، ثُمَّ وَضَعَهُنَّ فَخَرِسْنَ ، ثُمَّ تَنَاوَلَهُنَّ فَوَضَعَهُنَّ فِي يَدِ عُثْمَانَ ، فَسَبَّحْنَ فِي يَدِهِ حَتَّى سَمِعْتُ لَهُنَّ حَنِينًا كَحَنِينِ النَّحْلِ ، ثُمَّ وَضَعَهُنَّ فَخَرِسْنَ."[٣٤]

٢- وتحتمل أيضا ـــ معنى أخر (إيحائيًا) يحتاج إلى تأمل وطول تفكر ، هو أن المراد في الآيات بتسبيح الكائنات هو : الخضوع لأمر الله (جل في علاه) ، أي أن كل شيء خلقه الله تعالى بدءًا من الذرة الصغرى إلى الأجرام الكبرى عاكفٌ على أداء وظيفته ، التي خُلِقَ من أجلها ، لا يشرد عنها أبدًا ، يمينا ولا شمال ، وعلماء الفلك المحدثون يعرفون هذا جيدًا ، وهذه الوظيفة التي تنهض بها هذه الأشياء هو المراد بها التسبيح .ويشير إليه قوله تعالى، في آية أخرى : ﴿ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى{٥٠} ﴾[طه: ٥٠] ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً{٣} ﴾[الإنسان: ٣]. وهذان المعنيان جيدان ، ومقبولان ، ومحتملان ، ولكن النفس تطمئن إلى المعنى الأول ـــ كما قلنا ـــ وهو المعنى الحقيقي ، لأنه أقرب إلى المراد .

ـــ ومن التورية أيضا التي وردت في آيات الله ، والتي يتجاذبها معنيان ، قوله تعالى وهو يتحدث عما أَعَدَّهُ الله للسابقين في الجنة : ﴿ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ{١٧}﴾ [الواقعة: ١٧] ،

---

[٣٤] الحديث أخرجه البزار في مسنده ، ج٩ ص٤٠٥، و الطبراني في المعجم الأوسط :ج٤ ص٢٤٥ [٤٠٩٧] ، مسند الشاميين:ج٤ ص٢٤٦ [٣١٩٨]، والبيهقي في دلائل النبوة ج٢ص٥٥٥ ، و أبو القاسم التيمي : دلائل النبوة ج١ص٤٠٤ وما بعدها.

ـــ كما قال في آية أخرى : ﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤاً مَّنثُوراً{١٩} ﴾[الإنسان: ١٩]. فكلمة (مخلدون) في الآيتين يتجاذبها معنيان : المعنى الأول ـــ وهو (المعنى القريب) الذي يتبادر إلى الذهن عند قراءة الآيتين السابقتين ، هو " ق" من الخلود . أي أن هؤلاء الولدان يكونون في الجنة على صفة واحدة لا يكبرون ، ولا يشيبون ، ولا يتغيرون ، حالهم دائما حال الغلمان لا تتغير .

ـــ قال صاحب التحرير والتنوير : " ولدان " : جمع وليد، وأصل وليد فعيل بمعنى مفعول، ويطلق الوليد على الصبي مجازا مشهورا بعلاقة ما كان ، لقصد تقريب عهده بالولادة، وأحسن ما يتخذ للخدمة الولدان لأنهم أخف حركة وأسرع مشيا ولأن المخدوم لا يتحرج إذا أمرهم أو نهاهم. ووصفوا بأنهم " مخلدون " للاحتراس مما يوهمه اشتقاق " ولدان " من أنهم يشبون ويكتهلون ، أي لا تتغير صفاتهم فهم ولدان دوما وإلا فإن خلود الذوات في الجنة معلوم فما كان ذكره إلا لأنه تخليد خاص " (٣٥).

والمعنى الآخر ـــ هو المعنى البعيد والخفي من كلمة " مُخَلَّدُونَ " أي ولدان (مقرطون) تجعل في آذنهم القرطة . فالحَلَقُ في الأذن يسمى قُرطًا ، وخلدة (والله أعلم بمرادة) .

ـــ قال سعيد بن جبير : " مخلّدون " مُقَرَّطُون .يقال للقُرْط : الخَلَدَة ، ولجماعة الحُلِيّ : الخِلَدة (٣٦)

ـــ و " قال أبو عبيدة "مخلدون " : محلون بالخلدة بوزن قردة ، واحدها خلد كقفل ، وهو اسم للقرط في لغة حمير" (٣٧).

ـــ وقال ابن القيم : " ولدان مخلدون أي قد خلقوا للبقاء لذلك لا يتغيرون ولا يكبرون وهم على سن واحد أبدا ، وقيل : هم المقرطون في آذانهم ، والمسورون في أيديهم ، وأصحاب هذا

---

(٣٥) راجع : محمد الطاهر بن عاشور التونسي (المتوفى : ١٣٩٣هـ): التحرير والتنوير المعروف بتفسير ابن عاشور، ج ٢٩ ص ٣٦٨(تفسيره لسورة الإنسان)طبعة أولى ، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت – لبنان ،سنة ١٤٢٠هـ ـــ ٢٠٠٠م.

(٣٦) انظر : أبو حفص سراج الدين عمر بن علي بن عادل الحنبلي الدمشقي النعماني (المتوفى : ٧٧٥هـ) :تفسير اللباب في علوم الكتاب ، (تفسير سورة الواقعة) .

(٣٧) ابن عاشور : نفس المصدر ،والصفحة .

القول فسروا اللفظة ببعض لوازمها ، وذلك أمارة التحليد على ذلك السن فلا تنافي بين القولين "[٣٨]

و تسمى هذه التورية في مفهوم البلاغيين بـــ (التورية المجردة) ، لأنه لم يُذْكَرْ فيها لازم من لوازم المعنى القريب ، ولا من لوازم المعنى البعيد .

ـــ ونحوهـــــــا قوله تعالى : ﴿ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ{٥} وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ{٦}﴾ [محمد: ٥ – ٦] . فكلمة (عَرَّفَهَا لَهُمْ) يتجاذبها معنيان : الأول ـــ (عَرَّفَهَا لَهُمْ) أي " طيبها لهم ، من العرف : وهو طيب الرائحة " [٣٩].وقال ابن عباس: " عَرَّفَهَا لَهُمْ " أي طيبها لهم بأنواع الملاذ؛ مأخوذ من العرف، وهو الرائحة الطيبة. وطعام معرف أي مطيب؛ تقول العرب: عرفت القدر إذا طيبتها بالملح والأبزار" [٤٠].

والآخر : (عَرَّفَهَا لَهُمْ) أي " أعلمها لهم وبينها ، بما يعلم به كلُّ أحدٍ مترلته ودرجته من الجنة . قال مجاهد : يهتدي أهل الجنة إلى مساكنهم منها لا يخطئون ، كأنهم كانوا سكانها منذ خلقوا لا يستدلون عليها ، وعن مقاتل : إن الملك الذي وكل بحفظ عمله في الدنيا يمشي بين يديه، فيعرفه كلَّ شيء أعطاه الله "[٤١] . " وإنّ الرجل ليأتي مترله منها إذا دخلها كما كان يأتي مترله في الدُّنيا ، لا يشكل ذلك عليه . وإنّه أهدى إلى درجته وزوجته وخدمه ونعمه منه إلى أهله ومترله في الدُّنيا . هذا قول أكثر المفسِّرين " [٤٢] . وهذان المعنيان، معقولان ، ومحتملان .

---

[٣٨] انظر التفسير القيم لابن القيم ، ج١ ، ص٤٤٥.

[٣٩] الزمخشري (المتوفى : ٥٣٨هـــ) : الكشاف ، ج ٠ص٥١٨ (ط. العبيكان) .

[٤٠] شمس الدين القرطبي (المتوفى : ٦٧١هـــ):الجامع لأحكام القرآن، ج ١٦، ص ٢٣١، طبعة دار عالم الكتـــب، الرياض، المملكة العربية السعودية، تحقيق هشام سمير البخاري ، سنة ١٤٢٣هـــــ٢٠٠٣م .

[٤١] الزمخشري : نفس المصدرالسابق ج٥ص ٥١٨(ط. العبيكان) .

[٤٢]أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي النيسابوري: الكـــشف والبيـــان، (ســـورة محمـــد) ج ٩، ص ٢١الطبعة : الأولى، دار إحياء التراث العربي – بيروت – لبنان – ١٤٢٢ هـــ – ٢٠٠٢ م.راجع أيضا :تفسير الطبري(المتوفى : ٣١٠هـــ) : جامع البيان في تأويل القرآن،ج٢٢، ص ١٦٠، ط١، مؤسسة الرسالة ،تحقيـــق أحمد محمد شاكر، ١٤٢٠ هـــ – ٢٠٠٠ م.

ــ ونحوه قول الله تعالى في رخصة الصيام : ﴿ **أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَآئِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ اللّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُواْ مَا كَتَبَ اللّهُ لَكُمْ وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّواْ الصِّيَامَ إِلَى الَّليْلِ وَلاَ تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللّهِ فَلاَ تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ{١٨٧}** ﴾ [البقرة: ١٨٧].

ــ في الآية رخصة من الله الرحمن الرحيم ، لأمة محمد (ﷺ) ورفع لما كان عليه الأمر في ابتداء الإسلام ، فإنه كان إذا أفطر أحدهم إنما يحل له الأكل والشرب والجماع إلى صلاة العشاء ، أو ينام قبل ذلك ، فمتى نام ، أو صلى العشاء حرم عليه الطعام والشراب والجماع إلى الليلة القابلة ، فوجدوا في ذلك مشقة كبيرة فنزلة هذه الآية ترخص لهم ذلك من بداية إفطارهم إلى ما قبل صلاة الفجر .

ــ بكلمة : " **الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ**" يتجاذبها معنيان :

أحدهما حقيقي : وهو الخيط الذي يحيك به الإنسان الثياب وغيرها . وقد فهمه بعض صحابة رسول الله وأطلعه عليه وأنكره الرسول (ﷺ) عليه كما سيأتي بعد .

والآخر ــ المعنى البعيد ويحتاج إلى طول تفكر وتأمل ، وهو أن المقصود بــ (الخيط) ضياء الصبح من سواد الليل ، وبياض النهار . وهو المعنى المراد ، والدليل على ذلك ما رواه البخاري في حديث صحيح عَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : **قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنْ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ ، أَهُمَا الْخَيْطَانِ ؟ قَالَ : " إِنَّكَ لَعَرِيضُ الْقَفَا إِنْ أَبْصَرْتَ الْخَيْطَيْنِ " ، ثُمَّ قَالَ :" لَا بَلْ هُوَ سَوَادُ اللَّيْلِ وَبَيَاضُ النَّهَارِ"** "[٤٣]

ــ فإن تفسير (الخيط) في الآية بالمعنى الأول الظاهر ، و إهمال المعنى الثاني قد يترتب عليه فقدان حكم شرعي ، ووقوع صاحبه في الإثم دون أن يدري .

ــ ونحوه قوله تعالى : ﴿ **يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ{٢١}** ﴾[التوبة : ٢١] ، فذكر " رضوان " مع الجنات مما يوهم إرادة خازن الجنة .

---

[٤٣] الحديث صحيح : أخرجه البخارى : ج٢ ص٦٧٧ ، رقم [١٨١٧]، ومسلم :ج ٢ ص٧٦٦ [١٠٩٠] ، وأبو داود :ج٢ص٣٠٤ ، رقم [٢٣٤٩]، والترمذى : ج٥ص٢١١ ، رقم[٢٩٧٠] .

ـــ ومن التورية أيضا ما جاء في قوله تعالى : ﴿قَالُواْ تَاللّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلاَلِكَ الْقَدِيمِ{٩٥}﴾[يوسف: ٩٥]. وذلك في قول أولاد يعقوب لأبيهم حين قال لهم : ﴿فَلَمَّا أَن جَاء الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيراً قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ{٩٦} ﴾[يوسف: ٩٦]

ـــ فالضلال هنا له معنيان : أحدهما قريب ، ودلالة اللفظ عليه واضحة : الضلال ضد الهدى ، أي أنهم يريدون منه تفنيد قوله هذا وتكذيبه ، وبيان ضلاله ، وهو أنه يجد ريح يوسف ، ولكن هذا المعنى القريب غير مراد .

والآخر ـــ معنى دلالي بعيد : لا يدرك إلا بإطالة التفكير ، والتأمل ، وهو الحب ، فمرادهم من ذلك قوله تعالى في الآية الأخرى : ﴿إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ{٨} ﴾ [يوسف: ٨] ، فهذا الشاهد وارد على لسان أولاد يعقوب(عليه الصلاة والسلام).

ـــ وقال السيوطي ، وقد أورد بعض التوريات في القرآن الكريم ناقلا عن غيره : " قال ابن أبي الأصبع في كتابه الإعجاز : " قَالُواْ تَاللّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلاَلِكَ الْقَدِيمِ{٩٥}" فالضلال يحتمل الحب وضد الهدى، فاستعمل أولاد يعقوب ضد الهدى تورية عن الحب (٤٤).

ـــ وقوله تعالى : ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ{٩٢} ﴾[يونس: ٩٢] .

ـــ " فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ " على تفسيره بالدرع ، فإن البدن يطلق عليه ، وعلى الجسد والمراد البعيد ، وهو الجسد" (٤٥) ، وقيل : معنى ببدنك بصورتك التي تعرف بها ، وكان قصيراً أشقر أزرق قريب اللحية من القامة ، ولم يكن في بني إسرائيل شبيه له يعرفونه بصورته ، وببدنك إذا عنى به الجثة تأكيد كما تقول : قال فلان بلسانه وجاء بنفسه.(٤٦)

---

(٤٤) راجع جلال الدين السيوطي: الإتقان في علوم القرآن ،ج٢ص٢٢٧.

(٤٥) راجع السيوطي : نفس المصدر والصفحة .

(٤٦) راجع : أبو حيان النحوي الأندلسي (المتوفى : ٧٤٥هـــ): تفسير البحر المحيط، ج٦ص ٢٦٤.

ـــ قال ابن عباس : (ببدنك) بدرعك ، وكان من لؤلؤ منظوم لا مثال له.وقيل : من ذهب.وقيل : من حديد وفيها سلاسل من ذهب"(٤٧). " ،فقد يسمى الدرع بدنة لكونها على البدن كما يسمى موضع اليد من القميص يدا ، وموضع الظهر والبطن ظهرا وبطنا ، وقوله تعالى ﴿ وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ ﴾ [الحج:٣٦] "(٤٨) ، فإن بعض بني إسرائيل شكُّوا في موت فرعون، فأمر الله تعالى البحر أن يلقيه بجسده بلا روح ، وعليه درعه المعروفة به على نجوة من الأرض وهي المكان المرتفع ، ليتحققوا موته وهلاكه(٤٩).

ـــ قال ابن كثير : " قال مجاهد: بجسدك. وقال الحسن: بجسم لا روح فيه. وقال عبد الله بن شداد: سويا صحيحا، أي: لم يتمزق ؛ ليتحققوه ويعرفوه. وقال أبو صخر: بدرعك ،وكل هذه الأقوال لا منافاة بينها، كما تقدم، والله أعلم" .(٥٠)

ـــ ومنها قوله تعالى :﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ{٢٨} ﴾[سبأ: ٢٨] .

ـــ قال الإمام جلال الدين السيوطي " ونقلت من خط شيخ الإسلام ابن حجر : إن من التورية في القرآن قوله تعالى ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ ﴾ فإن كافة بمعنى مانع.. أي تكفهم عن الكفر والمعصية ، والهاء للمبالغة ، وهو معنى بعيد، والمعنى القريب المتبادر أن المراد (جامعة) بمعنى جميعاً، لكن منع من حمله على ذلك أن التأكيد يتراخى عن المؤكد، فكما لا تقول رأيت جميعاً الناس لا تقول رأيت كافة الناس "(٥١).

ـــ وقال الزمخشري : " إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ " إلا إرسالة عامة لهم محيطة بهم؛ لأنها إذا شملتهم فقد كفتهم أن يخرج منها أحد منهم . وقال الزجاج المعنى أرسلناك جامعاً للناس في الإنذار والإبلاغ ، فجعله حالاً من الكاف وحق التاء على هذا أن تكون للمبالغة كتاء الراوية والعلامة ،

---

(٤٧) راجع : أبو حيان : نفس المصدر، ج٦ص ٢٦٤.

(٤٨) انظر : أبو القاسم الحسين بن محمد (ت ٥٠٢هـ) :المفردات في غريب القرآن، ج١، ص ٢٩ ، طبعة دار المعرفة، بلبنان ،تحقيق محمد سيد كيلاني .

(٤٩) راجع :ابن كثير القرشي الدمشقي (المتوفى : ٧٧٤هـ):تفسير القرآن العظيم،ج ٤، ص ٢٩٤ .

(٥٠) ابن كثير : نفس المصدر ،ج ٤، ص ٢٩٤.

(٥١) راجع السيوطي : نفس المصدر والصفحة .

ومن جعله حالاً من المجرور متقدماً عليه فقد أخطأ؛ لأنّ تقدم حال المجرور عليه في الإحالة بمنزلة تقدم المجرور على الجار ، وكم ترى ممن يرتكب هذا بالخطأ ثم لا يقنع به حتى يضمّ إليه أن يجعل اللام بمعنى إلى؛ لأنه لا يستوي له الخطأ الأوّل إلا الخطأ الثاني ، فلا بدّ له من ارتكاب الخطأين"[٥٢].

ــ وقال ابن العثيمين : "أي كافاً لهم عمّا يضرهم لتخرجهم من الظلمات إلى النور"[٥٣].

ــ ومن ذلك قوله تعالى بعد ذكر أهل الكتاب من اليهود والنصارى حيث قال:﴿**وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوْتُواْ الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُواْ قِبْلَتَكَ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَاً لَّمِنَ الظَّالِمِينَ{١٤٥}**﴾[البقرة: ١٤٥] ، ولما كان الخطاب لموسى من الجانب الغربي وتوجهت إليه اليهود ، وتوجهت النصارى إلى المشرق كانت قبلة الإسلام وسطاً بين القبلتين ، قال تعالى : ﴿**وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً**﴾[البقرة:١٤٣] " أي : (خياراً) ، وظاهر اللفظ يوهم التوسط مع ما يعضده من توسط قبلة المسلمين صدق على لفظه (وسط) ها هنا أن يسمى تعالى به ؛ لاحتمالها المعنيين ، ولما كان المراد أبعدهما ، وهو (الخيار) صلحت أن تكون من أمثلة التورية " ثم علق السيوطي عليها قائلا :

قلت : وهي " مرشحة " تلازم المورى عنه ، وهو قوله : " **لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ**"، فإنه من لوازم كونهم خياراً : أي عدولاً ، والإتيان قبلهم من قسم المجردة " .[٥٤]

ــ قال تعالى :﴿ **وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ{٢٣}** ﴾[يوسف: ٢٣]

ــ " إنه ربي " فيحتمل أن يعود الضمير في " إنه " على الله (عز وجل) ، ويحتمل أن يريد العزيز سيده ، أي فلا يصلح لي أن أخونه ، وقد أكرم مثواي وائتمنني . قال ابن عطية ، وشمس الدين القرطبي : " إِنَّهُ رَبِّي " يعني زوجها، أي هو سيدي أكرمني فلا أخونه؛ قاله مجاهد وابن

---

[٥٢] الزمخشري : الكشاف ، ج٥ ص٣٧٨.

[٥٣] راجع تفسير القرآن للعثيمين ، العلامة محمد بن صالح بن محمد العثيمين (المتوفى : ١٤٢١هـــ) تفسيرة للآية .

[٥٤] السيوطي : نفس المصدر ، والصفحة .

إسحاق والسدي. و قال الزجاج: أي إن الله ربي تولاني بلطفه، فلا أرتكب ما حرمه "(٥٥). وقال البغوي : "وقيل: الهاء راجعة إلى الله تعالى، يريد: أن الله تعالى ربي أحسن مثوايَ، أي: آواني، ومن بلاء الجبِّ عافاني" (٥٦).

وفيها تورية أخرى : فقد ذكر ابنُ الخطيبِ :" أن يوسف عليه الصلاة والسلام كان حراً، وما كان عبداً ، فقوله : " إِنَّهُ ربي " يكون كذباً ، وذلك ذنبٌ وكبيرة " . ورد عليه الفخر الرازي :" أنه (عليه السلام) أجرى هذا الكلام بحسب الظاهر ، وعلى وفق ما كانوا يعتقدون فيه من كونه عبداً له ، وأيضاً أنه رباه ، وأنعم عليه بالوجوه الكثيرة ، فعنى بكونه رباً له ،كونه مربياً له ، وهذا من باب المعاريض الحسنة ، فإن أهل الظاهر يحملونه على كونه رباً له وهو كان يعني به أنه كان مربياً له ومنعماً عليه .(٥٧)

ــ قال تعالى : " **فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ** " [يوسف : ٢٤] ، قيل : أَنْسِىَ يوسف ذكر ربه، لَمَّا قال : " اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ " . وقيل : بل الشيطان أَنْسَى الذى نجا منهما ذكر ربه ، وهذا هو الصواب، فإنه مطابق لقوله : " **اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ** " ، قال تعالى : " **فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ** " والضمير يعود إلى القريب ، إذا لم يكن هناك دليل على خلاف ذلك ؛ ولأن يوسف لم ينس ذكر ربه، بل كان ذاكرًا لربه (٥٨) .

ــ من ذلك أيضا قول الله عز وجل على لسان نبي الله إبراهيم (عليه السلام) :**﴿ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ{٨٨} فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ{٨٩} فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ{٩٠}﴾** [الصافات : ٨٨ – ٩٠] ﴾ " **فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ{٨٩}**" وردت هذه المقولة الخليلية في القرءان الكريم بأسلوبه المعجز الذي نزل على قوم هم أساطين البيان، وملوك الكلام ، فجاء يتحداهم في أخص شئونهم ، وأبين صفاتهم ، لتكون الحجة ألزم ، والمعجزة به أتم .

---

(٥٥) انظر :أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي (المتوفى : ٥٤٢هـ) المحرر الوجيز ، ج٣ ، ص ٤٩٣ ، أيضا شمس الدين القرطبي (المتوفى : ٦٧١هـ) :الجامع لأحكام القرآن، ج ٩ ، ص ١٦٥ ، طبعة دار عالم الكتب، الرياض، المملكة العربية السعودية ،المحقق : هشام سمير البخاري .

(٥٦) محيي السنة ، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي (المتوفى : ٥١٠هـ): معالم التنزيل،ج٤ ص ٢٢٨، ط٤، دار طيبة للنشر والتوزيع ، حققه وخرج أحاديثه محمد عبد الله النمر – عثمان جمعة ضميرية – سليمان مسلم الحرش ، سنة ١٤١٧ هـ – ١٩٩٧ م .

(٥٧) تفسير الفخر الرازى : ج١ ص ٢٥٠٥ ، طبعة دار إحياء التراث العربى .

(٥٨) راجع : مجموع فتاوى ابن تيمية (التفسير)،

بل كانت هذه المقولة الخليلية ــ وما على شاكلتها ــ دليلًا حيـــا على إعجاز القرءان الكريم ــ يضاف إلى أ وجه إعجازه الأخرى ــ وعلى جودة نظمه ، وقوة تأليفه ، وسمو بلاغته وفصاحته ، إلى الحد الذي لم يستطع عنده أحد من البشر أن يحاكيه ، أو أن يمني نفس ذلك .

ــ فقد يظن بعضٌ ــ كما ذكر بعض المفسرين ــ(٥٩) أن إبراهيم (عليه السلام) وقع في دائرة الكذب ، حينما نظر نظرة في النجوم " **فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ{٨٩}** " _ و لم يكن سقيما ، وهذا القول مرفوض ، ولا يجوز أن نقوله على أبي الأنبياء ، جد نبينا محمد (ﷺ) ، فحينما نتأمل مقولة نبي الله إبراهيم (عليه الصلاة والسلام) : " **فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ{٨٩}** " ، لا نجد ألبته كذباً كما ظن البعض (سامحهم الله) . إذن كيف نوجه قوله هذا ؟

يمكن توجيه قوله ، إلى وجوهٍ عدةٍ تنأى به عن الوقوع في شبهة أبشع خطيئة عرفتها الإنسانية ورفضتها ، وشددت عليها كل الأديان السماوية ،وهي جريمة الكذب ، وهل كان خروج أبينا آدم (عليه السلام) من الجنة إلا من جراء كذب إبليس اللعين عليه في أمر الشجرة ؟!

نذكر من هذه الوجوه التي استخدمها أبو الأنبياء (عليه السلام) في منهج دعوته الآتي :

أولا – استخدم نبي الله إبراهيم(عليه السلام) في هذه الآية الكريمة "التورية" معتذرا ــ بصورة لطيفة ــ عن رفضه لقبول دعوة قومه ، والإعراض عن حضوره الاحتفال معهم بعيدهم ، الذي تستحل فيه المنكرات ، والفواحش ، وعبادة الأوثان ، وما كان يحدث من أفانين شركهم في هذا الاحتفال يغضب الله عز وجل ، وفي نفس الوقت ينتهز فرصة غيابهم ليكيد أصنامهم كما أقسم : "**وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ**" [الأنبياء :٧٥] .

فكلمة سقيم " هنا يتجاذبها معنيان : أولهما ــ قريب ، ودلالة اللفظ عليه واضحة ، وهو المرض ، أي : قال (عليه السلام) إني مريض ولا يمكن الخروج معكم إلى عيدكم ، وكان قبل أن يقول ذلك أَوْهَمَهُمْ بالنظر، والتفكر، والتأمل في النجوم ــ وكان إبراهيم (عليه السلام) عندهم صادقًا ، لم يجربوا عليه كذبا ــ فاعتقدوا أن نجمه ــ بحكم علمهم بالنجوم ــ يدل على سقمه، ومرضه (وهو الطاعون الذي كان أكثر مرضهم به) فخافوا من

---

(٥٩) راجع بحثنا : التوجيه البلاغي لدحض الشبهات المفتريات على الأنبياء في القرآن الكريم(بحث محكم) نشر في مجلة كلية الآداب بقنا جامعة جنوب الوادي ، في عددها الثلاثون، سنة ٢٠١٠م .

العدوى ـــ كما هو الحال اليوم في جميع الأمم ـــ ففروا منه ، وتفرقوا عنه ـــ بهذا الفهم للمعنى القريب الذي تبادر لأول وهله إلى تفكيرهم ـــ وتركوه في بيت الأصنام ليس معه أحد، ففعل بالأصنام ما فعل .

والآخر ـــ أما المعنى البعيد وهو " معنى دلالي " وهو المعنى الذي قصده (عليه السلام) و هو يحتمل وجوها عده نذكر منها:

الوجه الأول ـــ فهو لا يريد ـــ هنا ـــ بـــــقوله : **إِنِّي سَقِيمٌ** " ، السقمِ بمعناه المرضَ العضويَّ ، وإنما أراد السقمَ النفسيَّ : فهو سقيم القلب لسقم تفكيرهم ، وإصرارهم على عبادة الأوثان ، التي لا تضر ولا تنفع . سقيم من كفرهم جهارا بالله الواحد الأحد، الخليق بالعبادة ، سقيم لعدم سماعهم دعوته إلى وحدانيته (عز وجل) . سقيم سقمَ اليأس من هدايتهم ، رغم حرصه الشديد على الابتعاد بهم عن المعتقد الخاطئ، وعبادة الأوثان .

الوجه الثاني ـــ **﴿ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ{٨٩}﴾** أي : مشارف للسقم فيما يستقبل ،(وفيه مجاز مرسل) وقد قالوا : إن كل من كان الموت لاحقه ، فهو به سقيم ، وإن لم يكن به حين قالها سقم ظاهر ، وقد قال جل وعز : " **﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ{٣٠}﴾** [الزمر]".

ـــ فقد سئل الزمخشري : " كيف جاز له (يعني إبراهيم عليه السلام) أن يكذب؟؟

ـــ فقال : " قد جوزه بعض الناس في المكيدة في الحرب ، والتقية ، وإرضاء الزوج ، والصلح بين المتخاصمين والمتهاجرين ، والصحيح : أن الكذب حرام إلا إذا عرضَ وورى ، والذي قاله إبراهيم عليه السلام : معراض في الكلام ، ولقد نوى به أن من كان في عنقه الموت سقيم ، ومنه المثل: " كفى بالسلامه داءً " .

ــ وقول لبيد:

فدعوت ربّي بالسَّلامَةِ جَاهِداً　　لِيصحَّني فإذا السَّلامَةُ دَاءُ (٦٠)

ــ وقد مات رجل فجأةً فالتف عليه الناس ، وقالوا : مات وهو صحيح . فقال أعرابي :أصحيح مَنِ الموتُ في عنقه؟! وقيل: أراد إني سقيم النفس لكفركم"(٦١)

وقد ورى إبراهيم (عليه السلام) بذلك هروبا من مشاهدة منكراهم ، وزورهم ، وأفانين شركهم .

الوجه الثالث : يحتمل أن سيدنا إبراهيم (عليه السلام) أتي بكلامه علي سبيل التشبيه ، أي أنه سقيم القلب فقد شبه حزنه وغمه ومعاناته النفسية من سوء تفكيرهم وانحرافهم عن العقيدة الصحيحة ــ بالمرض ، أو كما قال القاسمي في تفسيره :" أراد أنه مستعد للموت استعداد المريض ، وفيها استعارة أو مجاز مرسل"(٦٢).

الوجه الرابع : ﴿ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ{٨٩}﴾ أي : كما قال البيضاوي في أنوار التتريل:خارج المزاج عن الاعتدال خروجاً قل من يخلو منه(٦٣) . من تفكيرهم ، وإصرارهم علي الكفر ، وهم فهموا أنه سقيم مريض بالطاعون فهربوا منه وتركوه وحيداً مع أصنامهم ، ففعل فيها ما فعل.

وعلى هذه الأوجه لا يكون هناك كذب ألبته في قول إبراهيم عليه ﴿ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ{٨٩}﴾ وإنما كان هذا القول دليلاً علي الإعجاز النظمي ، و البياني في القران الكريم ،

---

(٦٠) كانت قناتي لا تلين لغامز　　فألانها الإصباح والإمساء
فدعوت ربي بالسلامة جاهدا　　ليصحني فإذا السلامة داء
ــ والشاعر هو : لبيد بن ربيعه العامري، والقناة : الرمح ، استعارها لاقامته أو قوته على طريق التصريح، والليونة والغمز ؛ ترشيح ، والغمزي: الحي باليد . ويجوز أن الاستعارة تمثيلية في المركب . يصف قوته أيام الشباب ، ثم ضعف حال المشيب بتابع الأزمان عليه ، وأنه تطلب فسحة الأجل ، فكانت سبب اضمحلاله [راجع الكشاف :ح ٥ ص ٢١٦ ،٢١٧ ، ط . العبيكان].

(٦١) الكشاف : ح ٥ص٢١٧(ط. العبيكان) .

(٦٢) ينظر : تفسير القاسمي ، ج١٤ ، ص٣٧ (سورة الصافات) .

(٦٣) البيضاوي : أنوار التنويل وأسرار التأويل ٢٨: ص ٢٣٥ ، ط٢ الحلبي .

وشاهداً علي روعة أساليبه ، وطرق أدائه المختلفة ، التي حفلت بها اللغة العربية ، وما حوته من كنوز ونفائس لا تقف عند حد[٦٤] .

ــ ومن ذلك قوله تعالى من سورة يوسف :**﴿ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ{٧٠}﴾** [يوسف: ٧٠].

ــ فجملة " **إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ** " التي قالها عمال يوسف (عليه السلام) لأخوته ، فمع ملاحظة الآيات السابقة قد ينعكس إلى الذهن أنّ هؤلاء الأخوة هم الذين سرقوا مكيال الملك في حين أنّ مرادهم هو سرقة الأخوة ليوسف من أبيهم في كنعان .

قال عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي (ت١٣٧٦هــ) أثناء بيان الفوائد المستنبطة من قصة يوسف (عليه السلام) : ومنها أنه ينبغي لمن أراد أن يوهم غيره ، بأمر لا يحب أن يطلع عليه ، أن يستعمل المعاريض القولية ، والفعلية المانعة له من الكذب ، كما فعل يوسف ، حيث ألقى الصُّواع في رحل أخيه، ثم استخرجها منه ، موهما أنه سارق ، وليس فيه إلا القرينة الموهمة لإخوته ، وقال بعد ذلك :**﴿ قَالَ مَعَاذَ اللّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلاَّ مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ إِنَّـــا إِذاً لَّظَالِمُونَ{٧٩}﴾** [يوسف: ٧٩] ، ولم يقل : " من سرق متاعنا " وكذلك لم يقل : " إنا وجدنا متاعنا عنده " بل أتى بكلام عام ، يصلح له ولغيره ، وليس في ذلك محذور ، وإنما فيه إيهام أنه سارق ليحصل المقصود الحاضر، وأنه يبقى عند أخيه، وقد زال عن الأخ هذا الإيهام بعد ما تبينت الحال "[٦٥].

وقال أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى (المتوفى : ٩٨٢هــ) : "وإيثارُ (**إِلاَّ مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ**) دون (مَنْ سرق متاعنا) لتحقيق الحقِّ والاحتراز عن الكذب في الكلام مع تمام المرام فإنهم لا يحملون وُجدان الصُّواعِ في الرحل على محمل غيرِ السرقة (**إِنَّـــا إِذاً**) أي إذا أخذنا غيرَ من وجدنا متاعنا عنده ولو برضاه (**ظَالِمُونَ**) في مذهبكم ، وما لنا ذلك ، وهذا المعنى

---

[٦٤] راجع : بحثنا السابق ، التوجيه البلاغي لدحض الشبهات ...ص٥١ وما بعدها.

[٦٥] راجع : عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعيدي (ت١٣٧٦هــ) : تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ،ج١، ص : ٤٠٧ ، طبعة أولى ، مؤسسة الرسالة ، تحقيق عبد الرحمن بن معلا اللويحق ، سنة ١٤٢٠هــ - ٢٠٠٠م.

هو الذي أريد بالكلام في أثناء الحوارِ ، وله معنى [إيحائي] هو أن الله عز وجل إنما أمرني بالوحي أن آخذَ بنيامينَ لمصالحَ علمها الله في ذلك فلو أخذتُ غيرَه كنت ظالماً وعاملاً بخلاف الوحي."[٦٦]

التورية في آيات الصفات :

نذكر من ذلك قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لآئِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ{٥٤} ﴾ [المائدة: ٥٤] ، وقوله تعالى :﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ{٣١} قُلْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَالرَّسُولَ فإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ الْكَافِرِينَ{٣٢} ﴾[آل عمران: ٣١ – ٣٢] ، فكلمة الحب هنا تتجاذبها ثلاث معان :

المعنى الأول ـــ وهو المعنى الحقيقي لكلمة (الحب) : هو أن الله (عز وجل) يحب عباده حبًا حقيقيًا ، حبًا يتناسب مع ألوهيته (سبحانه وتعالى) ، حبًا يتواءم مع ذاته العلية ، حبًا يتفق مع صفات كماله ، حبًا بعيدًا عن المعنى الذي نعرفه في حياتنا البشرية ، والذي هو مظهرٌ من مظاهر الضعف البشري ألا وهو : الشعور بالاستئناس ممن نحبه ، والاستيحاش عند غيابه عنا ، هذا الحب يجعلنا عبيد لمن نحبهم ، ومأسورين عندهم ".فحب الإنسان نابع من بشريته ، ولكن حبُّ الله حبٌ خاص بذاته ، لا نعرف كيفيته ، ولا كنهه ، حب يليق بجلاله وعظمته .وهذا المعنى الذي تستأنس إليه النفس ونميل إليه لأنه لا يدخلنا في غياهب التأويل ، ولم نصرف النص عن ظاهره الحقيقي .

المعنى الثاني ـــ الذي تتجاذبه كلمة الحب في الآية الكريمة ، وهو معنى غير المعنى الحقيقي للفظ ، (المعنى الإيحائي) يقوم على تفسير حب الله لعباده ، بمعنى : الرضى ، أي أن حب الله لهم هو رضاه عنهم ، رضاه عن سلوكهم ، عن مواقفهم ، و توجهاتهم ، فعبر كما قال عنهم في آية أخري : ﴿ قَالَ اللّهُ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً رَّضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ{١١٩}﴾ [المائدة : ١١٩] وفي قوله تعالى أيضا : ﴿ وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ

---

[٦٦] راجع أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى (المتوفى : ٩٨٢هـــ): إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، (تفسير سورة يوسف)، ج٢ ، ص ٤٦٢.

رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ{١٠٠}﴾ [التوبة: ١٠٠] فهو يرضي عنهم .. " على سبيل المشاكلة .

المعنى الثالث ــ وهو معنى إيحائيٌّ ــ أيضا ــ الحب بمعنى الإثابة ، أي أنه سبحانه وتعالي يحبهم أي : يثيبهم ، ويكرمهم ، ويعطيهم الجزاء الأوفى في دار الدنيا والآخرة ، فقد عبر الله هنا عن المسبب بالسبب .

والمعاني الثلاثة محتمله ، وكلها جيدة ، وكلها مرادة ، وإن كنا نميل إلى المعنى الأول كما ذكرنا .

من ذلك أيضا : قوله تعالى ، وهو يتحدث عن خلقه لنبي الله آدم (عليه السلام)، ويسأل إبليس اللعين عن عدم السجود له ، وقد خلقه الله بيده ، بعد أن أمر الملائكة كلها بالسجود لهذا المخلوق وكان هو معهم : ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ{٧٥}﴾ [ص: ٧٥].

هذا الخطاب واضح معناه ، وقد جاءت التورية في كلمة (ي ي) ، فهذه الكلمة يتجاذبها معنيان :

أولهما ــ المعنى القريب ، وهو المعنى الحقيقي للكلمة ، وهو : أن الله خلق آدم بيده ، وأنه (سبحانه تعالى) له يدان حقيقيان ، ولكنهما مبرَّآن عن الشبيه ، والنظير ، فليست يداه كأيدينا من : لحم ، ودم ، وعصب ، وعظم ، ولا ينبغي أن يكونا كذلك ، لأن هذا التشبيه يتعارض مع قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ{١١} ﴾[الشورى: ١١] . وقوله تعالى :﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ{٤}﴾ [الإخلاص: ٤] ، وإنما له يد يعلمها هو ، ولا نعلم نحن كيفيتها ، فنقف عند هذا الحد ، ولا نتجاوزه ، ونترهه عما لا يليق به ، فلا نفصل ، إذ إن الأمر بالتفصيل لله عز وجل وحده ، و لم يفصل لنا ذلك .وأقف عند هذا الحد .

والمعنى الآخر البعيد : هو (المعنى الإيحائي) الذي يمكن أن تحمله الكلمة﴿ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ أي : لما خلقته بذاتي ، لا بواسطة ، فالله (سبحانه وتعالى) خلقنا جميعا ، وخلق آدم ،(عليه السلام) ، ولكن شاء أن يخلقنا الله بواسطة ، أي بسبب عن طريق الأبوين ، عن طريق الزواج ، وهذه الواسطة هو الذي خلقها أيضا .

ولكنَّه (سبحانه وتعالى) أراد أن يلفت نظرنا إلى أنه لم يخلق آدم كخلقنا ، أي بواسطة أبوين (ذكر وأنثى) مثل ذريته التي تولدت فوق هذا الأرض وتكاثرت ، ونمت ، وإنما خلقه الله خلقا ذاتيًا مباشرًا .

والمعنيان مقبولان ، ومحتملان ، وجيدان ، ولا مشكل فيهما ، ولا يفسق الإنسان ، ولايكفر ، ولا يتهم بالابتداع بتفسيره للمعنى الأول ، ولا للمعنى الثاني ، لأن هذه اللغة التي نزل بها القرآن ، وجري على أساليبها ، وتحدى فيها فصحاءها وبلغاءها ، تحتمل الكلمة فيها أكثر من معنى ، ولا يجوز لنا ــ أيضا ــ أن نقول : لا ينبغي لنا أن نفسر الآية إلا بالمعنى الأول فحسب، وإن فسرناها بالمعنى الثاني نكفر ، أو نفسق ، أو نكون مبتدعين ، هذا شيء خطير، تكفير الناس بكل سهولة هكذا وتبديعهم ، شيء خطير وعظيم ، لأننا نحجر واسعا من رحمة الله عز وجل ، ولكن يمكن أن نقول أن النفس ترتاح إلى المعني الأول .

ولو أن السلف الصالح من علماء الصحابة ، والتابعين كانوا موجودين في قرننا والقرون المتأخرة (الخامس والسادس الهجري)، لسلكوا مسلكنا ، ومسلك الكثير من الخلف في تأويل الكلمات التي تقبل التأويل ، من أجل صد الطاعنين ، والمشككين ، والمتلاعبين الذين يصطادون في الماء العكر ، وما أكثرهم في عصرنا الحديث ، عصر العولمة .

ولو أن الذين يعيشون في عصرنا الحديث ، أو عصر الخلف بعد عصر الصحابة والتابعين أمثال : الإمام الغزالي ، والخطابي ، والرازي وغيرهم ، عاشوا في عصر رسول الله (ﷺ) ، لما احتاجوا إلى التأويل ... لماذا ؟ لأن العصر لا يحتاج إلى تأويل ، والقلوب كلها كانت في عهد رسول الله (ﷺ) متفتحة بالفطرة الإيمانية ، وليست هنالك تشقيقات اللغة العربية ، والمجاز ، وما إلى ذلك من الفلسفات المتنوعة : أفكار الصابئة ، وأفكار المجوس ، والزركشتية ، و المزدكية ، كل هذه الفلسفات لم تكن موجودة ، والصحابة فتحوا أعينهم على الفطرة الإيمانية ، وقبلوا كلام الله (عز وجل) كما هو على ظاهره ، وفوضوا الشرح إليه (سبحانه وتعالى) .

ــ ونحوه قوله تعالى عن نفسه : ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى{٥} ﴾[طه : ٥]

كلمة العرش هنا ، لا تدخل معنا في باب التورية ، فيس لها معنى آخر غير معناها المعروف ، وإنما جاء المتشابه والتورية في قوله تعالى : ﴿ اسْتَوَى ﴾ ، حيث يتجاذبها معنيان :

الأول ــ " الاستقرار في المكان " (وهو المعنى الحقيقي القريب) : ﴿ اسْتَوَى ﴾أي استقر علي العرش ، ولكن دون أن ننقل هذه الكلمة من الحقيقة إلى المجاز ، على أن نتره الله(عز وجل) عن الشبيه ، و النظير ، كاستواء الملوك البشرية على عروشهم وملكهم ، لأنه سبحانه وتعالى: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ{١١} ﴾[الشورى: ١١] ، كما أنه :﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ{٤}﴾ [الإخلاص: ٤]، فلا سلف ولا خلف شبه الاستواء على العرش كاستواء الملوك البشرية على عروشهم ، فلله (سبحانه وتعالى) استواءٌ حقيقيٌ ، وعلى عرشٍ له وجودٌ حقيقيٌ أيضا ، دون أن نكيف هذا الاستواء ، ودون أن نشبهه بأحد من خلقه .لأن الله لم يقل لنا أكثر من هذا ، فنجب أن نقف عند هذا الحد ، ولا نتجاوزه .

الاحتمال الثاني ــ المعنى البعيد وهو (المعنى الإيحائيٌّ) : الاستواء " بمعنى الاستيلاء والملك " [٦٧] والتسلط والعظمة ، وهذا المعنى ــ أيضا ــ وارد ، أي : إن الله (سبحانه وتعالى) انبسط سلطانه ، وهيمنت عظمتُهُ على العرش ، ولكن دون أن نفسر الاستواء بالاستواء الحقيقي ، فلا نشبه ، ولا نمثل ، ولا نجسم .

ــ وهي من قبيل " التورية المجردة " التي لم يذكر فيها لازمٌ من لوازم المورى به (وهو المعنى القريب) ولا من لوازم المورى عنه (وهو المعنى البعيد) [٦٨].

وكلا المعنيين واردان ، ومقبولان ، ولكن أيهما أقرب إلى النفس وتستريح إليه ؟

ــ فقد سئل الإمام مالك عن الاستواء فقال : " الاستواء معلوم (أي من حيث اللغة)، والكيف مجهول (أي حقيقة تلك الصفة مجهولة لنا، لا دليل عندنا عليه، ولا سلطان لنا به)، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة " (أي: الاستفسار عن الكيفية بدعة ؛ لأنه ليس من هدي السلف، ولأنه أمر لا يمكن إدراكه أو الوصول إليه) فإني أخاف أن تكون ضالا وأمر به فأخرج.[٦٩]

---

[٦٧] راجع الزمخشري: الكشاف ، ج ٤ ، ص ٦٧(ط. العبيكان) .

[٦٨] راجع التورية المجردة في كتابنا : من روائع البديع في القرآن الكريم ، ص ١٢٨ .

[٦٨] اللالكائي : أبو القاسم هبة الله بن الحسن بن منصور الطبري : شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة من الكتاب والسنة وإجماع الصحابة ، ج٣ ص٣٩٨،طبعة دار طيبة ، بالرياض ، تحقيق الدكتور أحمد سعد حمدان،سنة ١٤٠٢هـ .

ـــ و نذكر من ذلك التورية في كلمة (بِأَعْيُنِنَا) في قوله تعالي: ﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ{٩} فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ{١٠} فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاء بِمَاء مُّنْهَمِرٍ{١١} وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُوناً فَالْتَقَى الْمَاء عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ{١٢} وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ{١٣} تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاء لِّمَن كَانَ كُفِرَ{١٤} ﴾ [القمر: ٩ - ١٤].

ـــ وفي كلمة : (عَيْنِي) من قوله تعالي : ﴿ أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي{٣٩} ﴾[طه: ٣٩].

فالكلمة يتجاذبها معنيان :

المعنى الأول ـــ العين بمعناها الحقيقي في اللغة العين الباصرة (وهو المعنى القريب) : فقد نسب الله في هذه الآية الكريمة لنفسه (أعين) فقال (تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا) ، إذن فلله أعين كما قال ، ولكن دون أن نشبه (عينه) بالعين البشرية ، أي لها حدقه ، ولها قرنية... فهو كما قال .

المعنى الآخر ـــ المعنى الإيحائي : تجري بأعيننا : أي برعايتنا ، بحراستنا ، وقدرتنا . وهذا تفسير بلاغي للكلمة .

قال الإمام البخاري في صحيحه (باب قول الله تعالى:" وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي " ، وقوله جل ذكره (تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا) : (وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي) تربى وتنشأ برعايتي وحفظي ، وأنا أنظر إليك بعيني ، وأرقبك ، وهي عين هو أعلم بها سبحانه .(بِأَعْيُنِنَا) على مرأى ، ومشاهدة منا، أو برعايتنا وحفظنا " (٧٠)

---

(٧٠) انظر : البخاري : الجامع الصحيح المختصر ، ج٦ ، ص ٢٦٩٤، ط٣ ، دار ابن كثير ، اليمامة – بيروت، تحقيق : د. مصطفى ديب البغا أستاذ الحديث وعلومه في كلية الشريعة - جامعة دمشق سنة ١٤٠٧هـــ – ١٩٨٧م .

والمعنيان مقبولان ، وجيدان ، ومحتملان ، ولكن المعنى الإيحائي هنا هو الذي تستريح له النفس ، وتطمئن له ، لماذا ؟

فقد وصف الله الطوفان في الآيات وصفا هائلا ، فقال سبحانه وتعالى: ﴿ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاء بِمَاء مُّنْهَمِرٍ{١١} وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُوناً فَالْتَقَى الْمَاء عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ{١٢} ﴾ فالسماء تحولت إلى أبواب منهمرة من الماء ، والأرض كلها تحولت إلى ينابيع متفجرة بالماء ، فكيف يكون حال الطوفان إذن ؟ لا شك عظيما .

ثم هون الله من أمر السفينة ووصفها بقوله : ﴿ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ{١٣} ﴾ و العقل الإنساني يمكن أن يقول : هل يمكن أن تكون مجموعة ألواح ودثر حملت الناس بداخلها ، و لم تغرق ، و لم تتحطم ، و لم تصبح أثرا بعد عين بين خضم الأمواج المتلاطمة ، والماء العظيم المنهمر من السماء ، والمتفجر من الأرض ؟

فكأن الله (عز وجل) هنا يريد أن يبين لنا أن الأسباب لا قيمة لها في حقيقتها ، وليست الألواح ، ولا الدسر ، هي التي حفظت نوح ، ومن معه من الغرق ، ورعته من هذا الطوفان العظيم ، فالأسباب صور لا قيمة لها ، أما العناية الحقيقية ، والرعاية الرئيسة كانت من الله وحده (سبحانه وتعالى)،خالق الأسباب وموجدها ، ولكن علينا أن نمتثل أمره في الأخذ بها ، دون أن نعتقد فيها ، فالأسباب في حقيقتها صوره ضعيفة ، لا قيمة لها ، لا تجدي ولا تفيد ، ومن اعتقد فيها فقد كفر ، وإنما يجب أن يكون الاعتقاد في رب هذه الأسباب وموجدها ، ولذلك لم يقل سبحانه وتعالى : حملناه على سفينة ، وإنما كنى بها عن موصوف السفينة ، فقال : ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ{١٣}﴾ ، وتلك تكمن عظمة القرآن ،وروعة بيانه، وسمو بلاغته وإعجازه الذي لا يجارى إلى يوم القيامة .

وهذا يذكرنا بقوله تعالى في مريم (عليها السلام) : ﴿ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيّاً{٢٥} ﴾[مريم: ٢٥].

فهز النخلة من مريم (عليها السلام) في صورتها التي هي عليها، من ضعف وإعياء، لتساقط الرطب ، أمر غير طبيعي ، ولا مقبول عقلا ، بل مستحيل ، بلا لا يستطيعه جماعة الرجال الأقوياء فضلا عن مريم (عليها السلام) الضعيفة والمنهكة ، ولكن هذا سبب ، وامتثال

لأمر الله ، الذي أمر مريم أن تمد بيدها إلى الجزع ، وفي هذه الحالة الضعيفة ، ففعلت ، امتثالا لأمر الله ، فكان نتيجة هذا الامتثال أن تساقط الرطب الجني كما وعدها ، فمن الذي أسقط الرطب الجني ، هز مريم للجزع ، كلا ، وإنما من أمرها بهذا الهز ، رب الأرباب، وخالق النخلة ورطبها.

فكلمة بأعيننا ، أي (برعايتنا)، والدليل على ذلك قوله تعالى في موضع آخر لأم موسى (عليهما السلام) : ﴿ أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي{٣٩} ﴾ [طه: ٣٩] .

ـــ مثال آخر: قوله تعالى: ﴿ أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاء أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ{١٦} ﴾ [الملك:١٦] . فكلمة السماء يتجاذبها معنيان : *المعنى الأول* : الذي يدل عليه ظاهر قوله تعالى : (من في السماء) ـــ كما قد يتوهم البعض ـــ أي أن الله تعالى في جوف السماء ، وأن السماء تحيط به ، كما لو قلنا : فلان في الحجرة ، فإن الحجرة محيطة به ، وهذا وهمٌ جليٌّ وظن فاسد ، فمن قال بذلك فقد أخطأ وضل ضلالا بعيدًاـــ لذا ينفي بعضٌ هذا الظاهر اللفظي ، وهو كون الله تعالى في السماء ، ويقول: إن الذي في السماء ملكه وسلطانه... ونحو ذلك.

ـــ وقال ابن عثيمين : منشأ هذا الوهم (أي من قال به) " ظنه أن " في " التي للظرفية تكون بمعنى واحد في جميع مواردها، وهذا ظن فاسد؛ فإن "في" يختلف معناه بحسب متعلقها ؛ فإنه يفرق بين كون الشيء في المكان ، وكون العرض في الجسم ، وكون الوجه في المرآة ، وكون الكلام في الورق المكتوب فيه، فلو قيل: هل العرش في السماء أو في الأرض؟ لقيل: في السماء ؛ مع أن العرش أكبر من السماء كثيراً "[٧١].

المعنى الثاني : وهو المعنى الدلالي البعيد ـــ و أورده ابن عثيمين بعد أن ذكر الكلام السابق فقال :" وعلى هذا فيخرج قوله : " أَأَمِنتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ " على أحد وجهين:

إما أن تكون السماء بمعنى العلو، فإن السماء يراد بها العلو كما في قوله تعالى: ﴿ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاء ﴾ [النمل: ٦٠]. والمطر ينزل من السحاب المسخر بين السماء والأرض لا من

---

[٧١] محمد بن صالح العثيمين : تقريب التدمرية ، ص ٦٨ ، ط ١ ، دار ابن الجوزي ، المملكة العربية السعودية، الدمام الطبعة : سنة ١٤١٩هـــ .

السماء نفسها، فيكون معنى كونه تعالى في السماء أنه في العلو المطلق فوق جميع المخلوقات، وليس هناك ظرف وجودي يحيط به ، إذ ليس فوق العالم شيء سوى الله تعالى.

ــ وإما أن تكون "في" بمعنى "على" كما جاءت بمعناها في مثل قوله تعالى: **﴿فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ﴾** [آل عمران: ١٣٧]؛ أي على الأرض، وقوله عن فرعون: **﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ﴾** [طه: ٧١]؛ أي على جذوع النخل، وعلى هذا فيكون معنى قوله تعالى: **﴿ أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاء﴾**[الملك: ١٦] ؛ أي على السماء أي فوقها، والله تعالى فوق السموات ، وفوق كل شيء"(٧٢).

المحور الثالث : ماذا يضيرنا لو لم نفسر بعض الآيات المتشابهات بالتورية ؟

تلعب التورية دورًا كبيرًا في تفسير بعض الآيات المتشابهات في القرآن الكريم ، التي يتجاذبها أكثر من معنى ،فضلا عن أنها تدفعنا إلى التدبر والتفكر والتأمل في آيات الله لمعرفة ما وراء الحروف والكلمات والعبارات القرآنية من أسرار ــ تحتملها وجوه التأويل ــ وكذا كنوز المعاني الإلهية فيها ، وهذا هو المراد من قراءة القرآن ، فقد حث القرآن الكريم في كثير من آياته على ذلك التفكر والتدبر، من ذلك قوله تعالى من سورة النساء : **﴿ أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفاً كَثِيراً{٨٢}﴾** ،وقوله تعالى من سورة محمد : **﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا{٢٤}﴾** (٧٣) ... إلخ .

وهذا الصنيع يبين فضل العالم من الجاهل ، إذ لو كان القرآن كله محكمًا ، جليًا ، لاستوت منازل الخلق في فهمه ، و لم يظهر التفاضل والتفاوت في العلم بين العباد. واستوى العالم والجاهل ، و لم يتبين فضل الذي يعلم حقيقة القول على الذي لا يعلم إلا ظاهره ، لذا جعل الله بعض القرآن محكمًا ؛ ليكون أصلاً للرجوع إليه ، وجعل بعضه متشابهًا يحتاج إلى الاستنباط

---

(٧٢) ابن عثيمين : المصدر السابق ، ص ٦٩ .

(٧٣) راجع أيضا : سورة الأعراف ، آية : ١٧٦، **﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ{١٧٦}﴾** ، وقوله تعالى :**﴿ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ{٢٤}﴾** [يونس آية : ٢٤] ، وقوله تعالى : **﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ{١١}﴾** النحل آية : ١١ ، وآية : ٦٦، و الروم آية : ٢١، والزمر آية : ٤٢ .

وإعمال العقل ، ورده إلى المحكم ، وفي ذلك تبرز فضيلة العلم والعلماء ، و يظهر فضل العالم على الجاهل .

فبالتورية نصل إلى المعاني الثواني للكلمات التي يتجاذبها معنيان ، أو أكثر ، وفي ذلك بيان لعظمة القرآن الكريم وروعة إعجازه ، وسعة اللغة العربية وسموها التي وسعت القرآن الكريم لفظا ومعنى ، وبالتورية نستطيع أن نزيل اللثام عن حجاب معاني كلماته ، التي ربما لو وقفنا عند معناها الحقيقي فقط ، أو المعنى الأولى الظاهر الذي تعطيه لنا بعض الكلمات القرآنية لأول وهلة ، لضاع منا حكمٌ من أحكام القرآن ، على نحو ما فهمه بعضُ الصحابة لظاهر لفظ (الخيط) كما مر بنا في قوله تعالى : ﴿ وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ﴾وربما سقط معنى من معانيه التي تأكد أنه كلام الله ، وربما ضاع المعنى المراد من اللفظ القرآني على نحو مَنْ يُفَسِّرُ : " النجم " بالأجرام السماوية في قوله تعالى من سورة الرحمن ": ﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ{٥} وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ{٦} ﴾، ولو وقفنا عند معنى ظاهر اللفظ القرآني فحسب ، لفقدنا كثيرًا من المعاني الأخرى التي يحتملها اللفظ القرآني ، على نحو ما ورد في قوله تعالى من سورة المدثر ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ{٤}﴾ ، ولو وقفنا أيضا ـــ عند ظاهر اللفظ ربما ترتب عليه أمور أخرى ، تمس أنبياء الله ، وتزيل عنهم العصمة ، وتوقعهم في دائرة الإثم ، والخطيئة ، على نحو ما جاء في قوله تعالى ، على لسان إبراهيم (عليه السلام) : ﴿ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾ " كما مر بنا ، وكذا ما ورد في قوله تعالى من سورة يوسف (علبه السلام) : ﴿ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ{٧٠}﴾ ....إلخ. (والله أعلى وأعلم) .

خاتمة البحث:

وبعد ...، فقد أجاب البحث عن كل الأسئلة التي طرحها ، فأفصح عن مفهوم التورية لغةً واصطلاحًا، وأبان عن أهميتها وسر جمالها ، وأجلى مفهوم المتشابه في القرآن الكريم ،وصلته بالتورية،وذكر أمثلة متعددة لتوضيح كل ذلك ،قبل الكشف عن نقاب التورية في القرآن الكريم، وأورد كثيرًا من الآيات القرآنية التي جاءت فيها التورية واضحةً جليةً،سواءً آيات الصفات ، أو غيرها ، باسطًا القول فيها ، ومعالجًا لها معالجة جديدة، غير مخالف لمنهج أهل السنة والجماعة، كما أفصح البحث عن أهمية التورية ودورها في تفسير بعض الآيات المتشابهات في القرآن الكريم ، التي يتجاذبها أكثر من معنى ،فضلا عن أنها تدفعنا إلى التدبر والتفكر والتأمل في آيات الله لمعرفة ما وراء الحروف والكلمات والعبارات القرآنية من أسرار ـــ تحتملها وجوه التأويل ـــ وكذا كنوز المعاني الإلهية فيها ، وهذا هو المراد من قراءة القرآن ، وفي ذلك بيان لعظمة القرآن الكريم وروعة إعجازه ، وسعة اللغة العربية وسموها التي وسعت القرآن الكريم لفظا ومعنى .

أهم مصادر البحث ومراجعه :

١ــ **إبراهيم مصطفى وآخرون** :المعجم الوسيط ، ج ٢ ، مجموعة من المؤلفين:(إبراهيم مصطفى ــ أحمد الزيات ــ حامد عبد القادر ــ محمد النجار)، تحقيق مجمع اللغة العربية ، ط دار الدعوة .

٢ ــ **الأبشيهي** (شهاب الدين محمد بن أحمد أبي الفتح الأبشيهي) : المستطرف في كل فن مستظرف ، ج١،الطبعة الثانية ،دار الكتب العلمية – بيروت ، د.مفيد محمد قميحة ، سنة ١٩٨٦م .

٣ ــ **د.أحمد عبد المجيد محمد خليفة** : التوجيه البلاغي لدحض الشبهات المفتريات على الأنبياء في القرآن الكريم(بحث محكم) نشر في مجلة كلية الآداب بقنا جامعة جنوب الوادي ، في عددها الثلاثون، سنة ٢٠١٠م.

٤ــ **د احمد عبد المجيد محمد خليفة** : من روائع البديع في القرآن الكريم ، طبعة مكتبة الآداب بالقاهرة ، سنة ٢٠٠١م .

٥ ــ **أبو الإصبع المصري** : تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن ، طبعة لجنة إحياء التراث بالقاهرة ، تحقيق د. حفني محمد شرف ، ، سنة ١٣٨٣هــ

٦ ــ **البخاري** : الجامع الصحيح المختصر ، ج٦ ، ط٣ ، دار ابن كثير ، اليمامة – بيروت، تحقيق : د. مصطفى ديب البغا أستاذ الحديث وعلومه في كلية الشريعة - جامعة دمشق سنة ١٤٠٧هــ – ١٩٨٧م .

٧ــ **بدر الدين الزركشي** : البرهان في علوم القرآن ، ج٣ ، ط٢ ، دار المعارف للطباعة والنشر ببيروت .

٨ ــ **البغوي** : (محيي السنة ، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي ــ ت : ٥١٠هــ): معالم التنزيل ، ط٤ ، دار طيبة للنشر والتوزيع ، حققه وخرج أحاديثه محمد عبد الله النمر – عثمان جمعة ضميرية – سليمان مسلم الحرش ، سنة ١٤١٧ هــ – ١٩٩٧ م .

٩ ــ **أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفومي**: الكليات (معجم في المصطلحات والفروق اللغوية) ، ج١ ، طبعة مؤسسة الرسالة – بيروت ، تحقيق: عدنان درويش – محمد المصري، ١٤١٩هــ – ١٩٩٨م.

١٠ــ **البيضاوي** : أنوار التنويل وأسرار التأويل ، ط٢ ، الحلبي .

١١ ــ **ابن حجة الحموي** : خزانة الأدب ، ج٢ ، طبعة مكتبة الهلال ببيروت ، سنة ١٩٩١م .

١٢ ــ **أبو حيان النحوي الأندلسي** (المتوفى : ٧٤٥هــ) : تفسير البحر المحيط ، ط٣ ، دار الفكر بيروت ، سنة ١٩٨٣م.

١٣ــ **الرازي** : تفسير الفخر الرازى : ، طبعة دار إحياء التراث العربى .

١٤ــ **زكريا الأنصاري** : أسنى المطالب في شرح روض الطالب، ج٢ ، الطبعة الأولى ، دار الكتب العلمية – بيروت ، تحقيق : د . محمد محمد تامر ،سنة ١٤٢٢ هــ – ٢٠٠٠م.

١٥ ــ **الزمخشري** (محمود بن عمر الزمخشري): الفائق في غريب الحديث ، ج٤ ،الطبعة الثالثة ، دار المعرفة – لبنان ،تحقيق : علي محمد البجاوي –محمد أبو الفضل إبراهيم

١٦ــ **الزمخشري**(جار الله ــ ت : ٥٣٨هــ): الكشاف في حقائق التريل وعيون الأقاويل في وجه التأويل ، ج٤، طبعة دار الفكر الطباعة والنشر ، وطبعة مكتبة العبيكان، تحقيق وتعليق ودراسة الشيخ عادل أحمد عبد الموجود ، والشيخ على محمد معوّض ، د فتحي عبد الرحمن أحمد حجازي ، سنة ١٤١٧هــ ــ ١٩٩٨م.

١٧ــ **أبو القاسم الحسين بن محمد** (ت ٥٠٢هــ) :المفردات في غريب القرآن، ج١، طبعة دار المعرفة، بلبنان ،تحقيق محمد سيد كيلاني .

١٨ـــالقرطبي (شمس الدين القرطبي ـــ ت : ٦٧١هـــ) :الجامع لأحكام القرآن ، ج ١٧ ، طبعة دار عالم الكتب، الرياض، المملكة العربية السعودية، تحقيق هشام سمير البخاري، سنة ١٤٢٣هـــ ـــ ٢٠٠٣م.

١٩ـــ أبو السعود (العمادي محمد بن محمد بن مصطفى ـــ ت : ٩٨٢هـــ): إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، ، تحقيق عبد القادر أحمد عطا . طبعة مكتبة الرياض الحديثة بالسعودية ، سنة ١٩٧١م.

٢٠ـــ السيوطي (جلال الدين السيوطي ، ت٩١١هـــ) : الإتقان في علوم القرآن ،ج٢.مطبعة المكتبة الثقافية ببيروت ، نة ١٩٧٣م.

٢١ـــ الطبري (سليمن بن أحمدبن أيوب أبو القاسم الطبري ، ت ٣١٠هـــ) : جامع البيان في تأويل القرآن، ط١، مؤسسة الرسالة ،تحقيق أحمد محمد شاكر، ١٤٢٠ هـــ – ٢٠٠٠م.

٢٢ـــ عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعيدي (ت١٣٧٦هـــ) : تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ،ج١، طبعة أولى ، مؤسسة الرسالة ، تحقيق عبد الرحمن بن معلا اللويحق ، سنة ١٤٢٠هـــ –٢٠٠٠ م.

٢٣ـــ ابن عجيبة (أحمد بن محمد بن المهدي الحسني الإدريسي الشاذلي الفاسي أبو العباس) : البحر المديد ،(تفسير سورة النور) ج٥ ، ط٢، دار الكتب العلمية ـــ بيروت،١٤٢٣ هـــ ـــ ٢٠٠٢ م .

٢٤ـــ ابن عاشور : محمد الطاهر بن عاشور التونسي (المتوفى : ١٣٩٣هـــ): التحرير والتنوير المعروف بتفسير ابن عاشور، طبعة أولى ، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت – لبنان ،سنة١٤٢٠هـــ ـــ٢٠٠٠م.

٢٥ـــ ابن عطية (أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي) :المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ط١، دار الكتب العلمية – لبنان ، تحقيق : عبد السلام عبد الشافي محمد، سنة ١٤١٣هـــ ـــ ١٩٩٣م .

٢٦ــ **العيني** (بدر الدين العيني الحنفي ت٨٥٥هـــ) : عمدة القاري شرح صحيح البخاري ، مطبعة الحلبي بمصر ، ١٣٩٢هـــ .

٢٧ ــ **ابن كثير** (أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشي ت:٧٧٤هـــ): تفسير القرآن العظيم ، طبعة ٢ ، دار طيبة للنشر والتوزيع ،تحقق : سامي بن محمد سلامة ، سنة ١٤٢٠هـــ - ١٩٩٩ م .

٢٨ــ **اللالكائي** (أبو القاسم هبة الله بن الحسن بن منصور الطبري) : شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة من الكتاب والسنة وإجماع الصحابة ، طبعة دار طيبة ، بالرياض ، تحقيق الدكتور أحمد سعد حمدان ، سنة ١٤٠٢هـــ .

٢٩ــ **محمد بن صالح العثيمين** : تقريب التدمرية ، ص ٦٨ ، ط ١ ، دار ابن الجوزي ، المملكة العربية السعودية، الدمام الطبعة : سنة ١٤١٩هـــ .

٣٠ــ **محمد نسيب الرفاعي** : اختصار تفسير ابن كثير ، ج٣، طبعة ٤، دار لبنان للطباعة والنشر ، سنة ١٩٨٣م.

٣١ــ **ابن منظور** (جمال الدينمحمد بن منظور المصري ،ت٧١١هـــ): لسان العرب ، ج ١،الطبعة الأولى ، دار صادر – بيروت .

٣٢ ــ **النيسابوري** (أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم التعلبي النيسابوري) : الكشف والبيان ، ط١، دار إحياء التراث العربي بيروت – لبنان ، تحقيق : الإمام أبي محمد بن عاشور سنة ١٤٢٢ هـــ - ٢٠٠٢ م.